ذكورة/أنوثة وقلق الهوية: قراءة في سيرة ادوارد سعيد الذاتية

نهى بيومي

إذا كانت السيرة الذاتية كالمرآة تتيح فتنة الكشف، كشف الذات والآخر، فإنها ولا ريب تعكس الذات في علاقتها بالآخر، في إطار يحدده التاريخ الخاص والعام. وحين نعترف بأن الأفراد فاعلين اجتماعيين في التاريخ، وأن التاريخ المُدوَّن عموماً، هو تاريخ أهل السلطة، عندها تكتسب السيرة الذاتية أهميتها من حيث تشكيلها مصدراً مختاراً من مصادر التاريخ الذاتي/ الاجتماعي، ينفتح فيه على فاعلين يقدمون وقائع من وجهة نظرهم بناء على تجاربهم.

تراهن السيرة الذاتية على إعطاء الكلام المبني على الخبرات والتجارب، فسحة تستهدف إعادة بناء النظر إلى بعض القضايا الخاصة/ العامة، وإفشاء المسكوت عنه. إنها السجل الشخصي[١] الذي يمكن اعتباره مصدراً مضاداً للتاريخ، يعلن الصامت والمصمت فيه، ويبلّغ الوجه الآخر للتاريخ السياسي/ الثقافي / الاجتماعي /الاقتصادي[٢]. ومع تغير وجهة النظر إلى القضايا التاريخية وعلى هذه المستويات كافة، الذي يعود في جزء كبير منه إلى جهود المؤرخات النسويات[٣] وإلى

---

(١) يقول فيليب لوجون إن السيرة الذاتية هي حكاية شخص حقيقي يكتبها عن وجوده الخاص، حكاية تركز على الحياة الفردية، خاصة على تاريخ الشخصية. انظر: Philippe Lejeune, Le pacte autobiographique, Seuil, Paris 1975. p. 13.

(٢) Philippe Artières, Les silences de l’histoire, in La Faute à Rousseau, n 33-juin 2003, p. 33.

(٣) انظر: Michelle Perrot, Histoire de la vie privée, Seuil, 1985-1987, 4 volumes.

أطروحات النقد الما بعد استعماري وإلى الأصوات المضادة للإمبريالية داخل العالم المتقدم، التي تتجاوز التاريخ المغلق الغافل لتجارب الفاعلين الاجتماعيين فيه؛ فإن السيرة الذاتية تنحاز إلى محور الممارسات اليومية التي أهملها التاريخ، فتبحث في الحميم الذي يعطي الذات مكانة مميزة.

على أن هذا النوع من الإفصاح/الشهادة يخضع لقواعد العيش ومسرحة الذات لذاتها. ذلك يحيلنا إلى التركيز على شروط إنتاج الخطاب السير ذاتي، وليس فقط الاهتمام بمضمونه. من هنا فإن دارس السيرة الذاتية يتعامل مع هذه المادة على أنها توصله إلى ما هو «دون العادي» infra-ordinaire، مثل الحوادث المقلقة، والوضعيات النافرة كالحرب واحتلال الوطن والمرض[٤]. يتطابق هذا المنحى مع تقييم متنامي للشهادة الفردية[٥] نجد تجلياتها خصوصاً في الإعلام المرئي والمكتوب، وفي الخطاب النسوي. إنه عصر الشاهد بامتياز.[٦] وهو أيضاً عصر استرداد السجلات المنسية أو المفقودة التي تتقاطع مع السجلات الجماعية، في فترات الأزمات السياسية والاجتماعية والثقافية، بحثاً عن الهوية، «فالسيرة الذاتية من أكثر أجناس الأدب الحديث انشغالاً بقضايا الهوية والموقع. فانشغالها بالهوية لا يقتصر على تناولها للهوية الفردية التي ينطلق منها المشروع السير ذاتي نفسه، ولكنه يتجاوزها إلى الهوية القومية أو الوطنية العامة. كما أن اهتمامها بالموقع لا يقتصر على المكان الذي تعيش فيه الذات وتتعامل معه، ولا على الفضاء الأوسع وهو الوطن، أو الأشمل وهو العالم الذي قد تتحرك فيه الذات وتتجول في فيافيه، وإنما يتناول الموقع من حيث دلالاته المتراكبة: موقع الذات في المجتمع ومكانتها فيه، وموقع الفرد من الجماعة التي يعيش فيها ومكانته عندها، والموقع باعتباره جغرافيا الذات والعالم».[٧]

من هنا تأتي أهمية دراسة سيرة ادوارد سعيد الذاتية «خارج المكان»[٨] التي

(٤) يقول ادوارد سعيد في معرض جوابه عن سؤال «لماذا يكتب؟» إن الكتابة «رفض للصمت الذي يخبره معظمنا كمواطنين عاديين ليس في استطاعتهم إحداث تغيير في المجتمع السياسي الاقتصادي، الذي، وكما هو واضح، تحركه قوى أكبر من الأفراد». انظر: الحق يخاطب القوة، ادوارد سعيد وعمل الناقد، المحرر بول بوفيه، إصدارات سطور، ترجمة فاطمة نصر، القاهرة، ٢٠٠١، ص. ٢٠.

(٥) يقول ادوارد سعيد، في المصدر السابق، «ولأن نبدو خارج مسيرة التاريخ هو أمر لا أرتضيه. شعرت أن أقل القليل الذي أستطيع فعله هو أن أدلي بشهادتي، أن أصبح شاهداً على نوع ما من التاريخ، وان أصححه (...) إنني أومن بالحقائق.» ص. ٢٠.

(٦) إنه عنوان كتاب. انظر: Annette Wieviorkam L'ère du témoin, Plon, 1998.

(٧) صبري حافظ، رقش الذات لا كتابتها: تحولات الاستراتيجيات النصية في السيرة الذاتية، في: ألف مجلة البلاغة المقارنة، العدد الثاني والعشرون، ٢٠٠٢، ص. ٩-١٠.

(٨) ادوارد سعيد، خارج المكان، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٠.

تجسد الانشغال في مسألة الهوية في أزمنة مضطربة، وفي أمكنة تعرضت لهزات سياسية/عسكرية/ثقافية. فهو رسم منذ المقدمة حدود سيرته التاريخية، لكن التاريخ بحروبه وثوراته واضطهاده القومي لا تهم الكاتب مباشرة في السيرة كي يسردها واصفاً وشارحاً. فهو ليس خادم المؤرخين، ومع هذا فإن التاريخ يدهشه ويستوحي منه.(٩)

إذا كانت سيرة ادوارد سعيد الذاتية ليست تاريخية تماماً، بل تنويعات على موضوع التاريخ، وإذا لم تكن سياسية تماماً، بل انحراف عن مدار السياسة، فما هي؟ في خاتمة سيرته يستخلص موقفه الفكري(١٠) الذي ينفي مركزية الذات/الهوية، ويؤكد حركتها في الزمان والمكان بكيفيات متعارضة بين حركة مندفعة إلى الأمام وأخرى مرتدة عليها، ويعلن عدم تناغمها ونشازها وتداخل حدودها بين الخاص والعام. تداخل لا يدل على الانسجام بقدر ما يدل على التنافر بين الطاقة الحرة والطاقة المقيدة، وبين سجليّ العاطفة والتصور. فاستخدم للدلالة على ذلك مصطلحاً موسيقياً «الطباقي»(١١) الذي كنّى به هويته، وهو برأينا استعارة حاول من خلالها التوغل في تراجيدية الحرمان والإقصاء والعيش «خارج المكان»، في محاولة لتحرير نفسه من هذا القيد، مستبدلاً ثبات هويته ورواياتها المنسجمة بنقيضها. ذلك بسبب ضياع فلسطين وتاريخه الخاص/العام الذي أقعده في لغتين وثقافتين ومناخين. إن إشارته إلى النقد الطباقي(١٢) contrapuntal criticism الذي استخدمه في دراساته النقدية، لفت

---

(٩) يقول: «هو سجل شخصي غير رسمي عن تلك السنوات المضطربة التي عايشتها منطقة الشرق الأوسط. فوجدتني أروي قصة حياتي على خلفية الحرب العالمية الثانية وضياع فلسطين وقيام دولة إسرائيل وسقوط الملكية في مصر والحرب الأهلية اللبنانية واتفاقية اوسلو». المصدر السابق، ص. ٢١.

(١٠) يقول: «أرى إلى نفسي كتلة من التيارات المتدفقة. أؤثر هذه الفكرة عن نفسي على فكرة الذات الصلدة، وهي الهوية التي يعلق عليها الكثيرون أهمية كبيرة (...) تتدفق هذه التيارات، مثل موضوعات حياتي، خلال ساعات اليقظة. وهي، عندما تكون في أفضل حالاتها، لا تستدعي التصالح ولا التناغم. إنها من قبيل «النشاز»، وقد تكون في غير مكانها، ولكنها على الأقل في حراك دائم في الزمان وفي المكان وبما هي أنواع مختلفة من المركبات الغريبة، لا تتحرك بالضرورة إلى أمام، وإنما قد يتحرك أحياناً واحدها ضد الآخر، على نحو طباقي ولكن من غير ما محور مركزيّ». المصدر السابق، ص. ٣٥٨-٣٥٩.

(١١) Contrepoint. نشكر الموسيقار اللبناني عبد الرحمن الباشا الذي صادف وجوده في البحرين حين كتابة هذه الدراسة، فشرح لنا هذه التقنية الموسيقية، التي تقتضي أن نطابق عدة ألحان بعضها مع بعض، لكن لكل لحن هويته الخاصة به، مع وجود تناسق ما فيما بينها، وتستخدم هذه التقنية في الموسيقى المتعددة الأصوات. وأضاف أن باخ هو أشهر موسيقي استخدم هذه التقنية، وهو الموسيقي المفضل لدى ادوارد سعيد.

(١٢) لقد شرح ادوارد سعيد النقد الطباقي قائلاً: «تثار في تقابلات الموسيقى الكلاسيكية الغربية تيمات مضادة لبعضها البعض، مع منح تميز مشروط مؤقت فقط لأي واحدة منها؛ إلا انه يوجد في تشعبات النغمات الناتج، تناغم ونظام، أي تفاعل منظم. وبالطبع فإن البادئة counter (مضاد أو معاكس) في لفظ =

انتباهنا، فدفعنا إلى استخدام مصطلح «الطباقي» في قراءة سيرته، متوقفين عند العلاقة الأكثر رهافة من التضاد التي أوجدها بين الخاص والعام، والأكثر تعقيداً. وقد آثرنا استخدام هذا المصطلح، ذلك لتحوله إلى مفهوم يقدم رؤية الذات إلى ذاتها في علاقتها بالآخر، والذي يمنح امتداداً Etendue إلى الهوية، كي لا تحد في المكان والزمان المأزومين. في هذه المساحة الزئبقية-بدون محور- سوف نحاول استجلاء استراتيجيته السردية التي قدمت إطاراً استدلالياً للسيرة يقوم على إعادة بناء الهوية وفق مفهوم الطباقي بين الخاص والعام، الأنا والآخر، كموقف معرفي يدفع بخطابه عن ذاته وعن النساء إلى مقاومة الإخضاع والتشريط أولاً. ثم ننتقل في خطوة ثانية إلى دراسة خطابه عن النساء، كي نتبين منظور الذكورة إلى نفسها وإلى غيرها، متسائلين ما إذا كان للطباقي الذي فسر به هويته انعكاساته على خطابه عن النساء.

أولاً: السيرة والحدود المتداخلة

إن أطروحة البناء الاجتماعي للواقع[١٣] تطرح تجاوز التعارضات بين الفردي والجماعي، والذاتي والموضوعي، والخاص والعام، وتفترض أن المجتمع إنتاج إنساني وواقع موضوعي، وأن الإنسان نتاج اجتماعي. هذه العلاقات المتشابكة تجعل الهوية متعددة الأبعاد. وادوارد سعيد الذي استفاد من منهج فوكو في الكشف عن الخفي الذي يتحكم على نحو لاواعٍ في التفكير الغربي حول الشرق، طبقه على نفسه في رحلة كشفه عن رؤيته لذاته وللآخر، وباعتماده فرضية النظام المعرفي الشارط للتفكير قد كشف في سيرته عن «عالمين مختلفين كلياً بل متعاديين (...) ولا نَعِمتُ مرة بشعور من التناغم بين ماهيتي على صعيد أول وصيرورتي على صعيد آخر.»[١٤]

إن سيرة ادوارد سعيد مبنية على موقف فكري يجعل لمعالجتها مساقاً مميزاً يراعي الطباقي لديه بين الخاص والعام، بين بناء ذكورته ورؤيته للنساء، فلا يمكننا فصل خطابه عن نشأته في فلسطين والقاهرة ولبنان، عن خطابه حول عيشه في أميركا، ولا خطابه عن النظام الثقافي/الاجتماعي في البيت، من الخطاب عن النظام

= counterpoint (الطباق-التقابل) هو تعبير عن التضاد وتستخدم تعبيرات مثل «نغمة ضد نغمة في التقنية الموسيقية للتقابلات (...)، النقد التضادي عدواني لأنه يفصل. والنقد التقابلي محب أو ودود لأنه الوصل (...). إن هدفي، الأساسي ليس الفصل بل الوصل». الحق يخاطب القوة، المصدر المذكور، ص. ٩٢. انظر أيضا: الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت١٩٩٧، ص. ٢٠. وكذلك انظر: تأملات في المنفى ١، ترجمة ثائر ديب، الآداب، بيروت ٢٠٠٤، ص. ١٣٣.

(١٣) انظر: Peter Berger, Thomas Luckmann, La construction sociale de la réalité, Armand Colin, Paris 1986.

(١٤) المصدر المذكور، ص. ٨.

الثقافي/الاجتماعي في المدرسة الكولونيالية، ولا خطابه عن أمه من خطابه عن أبيه، ولا خطابه عن شقيقاته من خطابه عن أهله، ولا خطابه عن الحبيبة من خطابه عن أمه. فهي كلها تشكل سيمفونية وجوده واستراتيجياته في التذكر والكتابة. على أنني كباحثة/ امرأة أفترض أيضاً امتياز سيرته الذاتية بخاصية جنوسية مثل الوجود الذي يؤلف مادتها الأولى. على أننا لا نعني بذلك الانفصال بين الذكورة والأنوثة ككيانين مستقلين دون نقاط التقاء بينهما. فالثنائية الجنسية bisexualité حاضرة في كل كائن، كما قال فرويد، كما يفترض حضورها في السيرة. خصوصاً وأن السيرة كنوع ترتبط ببناء الهوية، كما ذكرنا، وبالتالي لا يمكن للسيرة أن تكون غريبة عن الجنس[١٥] الذي يخضع للتمثلات الاجتماعية والثقافية. لكن هل يختلف الوضع بالنسبة إلى كاتب اختار مخالفة السائد والخروج عن المنمطات؟ خاصة وأنه نادراً ما درس خطاب الرجال في هذه المرحلة الراهنة، كخطاب مؤسس لرؤية الذات والآخر والعالم.

١- السجل الشخصي/السجل العام

ادوارد سعيد، هذه الشخصية المتحدية لمعرفتها ولمعارف الآخر، بحثاً عن «الانعتاق والتحرر من القوالب الجامدة للعائلة والدين والقومية واللغة أيضاً»[١٦]، قدم في هذه السيرة توجهاً فكرياً يقوم على عدم الفصل بين الخاص والعام، كأطروحة فكرية شمولية ترى إلى الكائن في رمته بعيداً عن تجزئته أو تجزئة العوامل الثقافية والسياسية والاجتماعية التي أثرَّت فيه وساهمت في تكوينه. على أن إخراج الذات ومسرحتها mise en scène فعل ملاصق لكتابة السيرة الذاتية، يشير إلى رؤية الذات لذاتها وللآخر وللعالم. فما الذي عرضته ذاكرة ادوارد سعيد المعرفية وذاكرته الشعرية على «مسرح الذاكرة»؟

لقد وضع الكاتب إطاراً برهانياً للاستدلال cadrage argumentatif وهو التوثيق بين الخاص والعام وتعاضدهما في تكوين هويته. وقد قصدنا بالإطار كمصطلح من مصطلحات تحليل الخطاب، أن إبراز أماكن وقيم معينة واختيار معطيات وتقديمها إلى القارئ تشكل جميعها تحضيراً للبرهنة، وهي أكثر من مجرد وضع عناصر وتقديمها إلى القارئ، إذ يشكل استخدامها الخطوة الأولى للإقناع[١٧]. فلو نظرنا أولاً إلى

(١٥) Jacques Lecarme, Elianne Lecarme-Tabonem, L'autobiographie, Armand Colin, Paris 1999, p. 93.

(١٦) المصدر السابق، ص. ٩.

(١٧) انظر: Patrick Charaudeau et Dominique Maingeneau, Dictionnaire d'analyse du discourse, Seuil, Paris, 2002, p. 87-89.

المبررات التي يقدمها الكاتب والتي دفعته إلى كتابة سيرته، سيتبين لنا أنها مبررات تجمع ما بين السجل الشخصي والسجل العام. إذ تتطابق سيرته مع محطات/صدمات من التاريخ الدولي، والعربي، والفردي. والربط بين التجربة الفردية microhistoire والتجربة الجماعية macrohistoire هو في صلب التساؤلات الراهنة للمؤرخين الذين يستخدمون الطرائق المتبعة في الانتروبولوجيا، التي تركز على الفاعل والفرد، وعلى الطريقة التي تنبني بها التجربة، حيث يتم الربط بين التاريخ والذاكرة، بين علاقة الفرد بالجماعة، وبناء الهويات وموقع الفرد فيها.[١٨] لم يجد ادوارد سعيد بدّاً من استخدام العمل الميداني الانتروبولوجي في سيرته، فهو يقدم الدلائل على مدى تعرّضه إلى عنف التاريخ، خلال المرحلة الاستعمارية ونكبة فلسطين. ولم يخضع الأفراد المتفردين في فرديتهم وبشكل مباشر لدائرة الجماعة، كما حدث خلال حروب هذا القرن ونكبة فلسطين وتفكك الاستعمار والعولمة. هكذا يمكننا فهم التلازم بين التاريخ الذاتي والجماعي، الخاص والعام، على أنه إبراز للأنا في التاريخ[١٩].

فلننظر إلى الدلائل التي يقدمها حين استعرض دوافع كتابة سيرته، **أولاً**، لاحظ الكاتب أن الفارق بين لغتيه العربية والإنكليزية مصدره فارق بين عالمين مختلفين ومتعاديين.[٢٠] إلا أن التناقض بين هذين العالمين المؤثرين في حياته، دفعه إلى توسيع مجال هويته وفتح حدودها.[٢١] **ثانياً**، إثر أحداث ٦٧ قرر العودة السياسية إلى العالم العربي، لكن العالم العربي قد تغير في هذا الوقت وما عاد يمثل عالم طفولته.[٢٢] فيتبين لنا مدى التشابك بين ظروفه الخاصة والظروف العامة التي أحاطت عيشه آنذاك في المنطقة العربية. ومع وعيه النقدي بارتباطه بثقافتين متناقضتين، إلا أنه رفض تقييد نفسه بتناقضهما، فوضع لسرده السير ذاتي مهمة حياكة الجوامع بينهما.[٢٣] لقد كانت مهمته مضاعفة: التوثيق بين ثقافتين/عالمين/هويتين، والتوفيق بين العالم العربي في طفولته والعالم العربي فيما بعد، خصوصاً وأنه اختار استعادة هويته العربية بوصفه «عربياً بالاختيار». ولا يسعنا في هذا التصور اعتبار عودته إلى الطفولة إلا محاولة

(١٨) Michelle Zancarini-Fournel, Sources orales et histoire du présent, dans: La faute à Rousseau, n. 33, juin 2003, p. 35.

(١٩) أطلق Pierre Nora مفهوم ego-histoire في مواجهة مدرسة الحوليات التي نادت بأولوية التجربة والوعي الجماعي على الرؤية الشخصية. انظر: Jeremy D. Popkin, L'ego-histoire comme témoignage, op.cit, p. 55.

(٢٠) المصدر المذكور، ص. ٨.

(٢١) المصدر السابق، ص. ٩.

(٢٢) المصدر السابق، ص. ٩.

(٢٣) المصدر السابق، ص. ٩.

لإعادة بناء الذات وفق تصورها وثقافتها المركبة المكتسبة.[٢٤] عربي لعبت ثقافته الغربية دوراً هاماً في استعادته ثقافته العربية، وصولاً إلى فتح تخومهما واستنهاض حوارهما.[٢٥] هكذا استولد نفسه من جديد في خروجه على قيوده الخاصة والقيود العامة. **ثالثاً**، إن فكرة التقابل بين عالمين مؤثرين في حياته، هو محرك كتابة السيرة.[٢٦] فهذا هو الإطار الذي يريد تثبيت صورته فيه، بعيد إبلاغه خبر مرضه. **رابعاً**، إن تغير حياته وحياة أهله وأقربائه يعود إلى تغير هيئة فلسطين ومعالمها تدريجياً مع تصاعد شراسة الاحتلال.[٢٧] **خامساً**، أدرك صعوبات السرد بالنسبة إلى الفلسطينيين، بسبب تقطّعه بالمعنى القومي وغياب خطيته وتفتت مركزه. ذلك جعل السرد الفلسطيني متشظياً. لذلك خشي من غياب تأريخ حياتهم المضطربة. انطلاقاً من هذا اقتنع بجدوى كتابة سيرته.[٢٨]

كان لهذا التقابل بين الخاص والعام في سرده، وإمساكه بعالمين/ثقافتين مؤثرين على حياته ونمط تفكيره، نتائج إيجابية. إذ استدعى هذا التقابل، توسيع هويته وبنائها بشكل دينامي متحرك ومتفاعل، وتجسير الهوة بين هذين العالمين، ناسجاً جوامعهما المستترة، معترفاً بفضل الثقافة الغربية التي أعادته إلى ثقافته العربية؛ مدفوعاً إلى كتابة سيرته الذاتية استناداً إلى هذه المتغيرات الخاصة والعامة التي دمغت تجاربه وعناصر أزمنته وأمكنته، هو الذي تنقل وعاش بين أمكنة متعددة بسبب احتلال فلسطين. رصد هذه المتغيرات، محاولاً بذلك بناء تاريخ ينطلق من الخاص وعلى خلفية العام، حفاظاً على تجارب وحيوات من التفتت والضياع، وبحثاً عن موسيقاه، فيمعن في سبر أغوار تاريخه كي يصل إلى الميلودي الداخلية المختبئة، مع أن الميلودي هي أكثر المصنفات الموسيقية مراوغة. فما دليله إليها؟ إنها الذكريات.

٢- ذكريات وطن غائب/حاضر

تدعو سيرة ادوارد سعيد إلى تعميم براديغم تذكري paradigme mémoriel، يجسد التقابل بين الخاص والعام في تكوين الهويات الفردية والجماعية. وما توسل الماضي عبر التذكر إلا استدعاء للعوامل الثقافية/الاجتماعية/السياسية التي كان لها

(٢٤) يقول: «أعدت قراءة حياتي المبكرة بما هي حياة من البحث عن الانعتاق والتحرر من القوالب الجامدة للعائلة والدين والقومية واللغة أيضاً–قراءة تعيد إليّ ما كنت أرغب فيه من تكيف أفضل وأكثر تناغماً بين ذاتي العربية وذاتي الأميركية». المصدر السابق، ص. ٩.

(٢٥) المصدر السابق، ص. ١٠.

(٢٦) المصدر المذكور، ص. ١٩.

(٢٧) المصدر السابق، ص. ٢٠.

(٢٨) المصدر السابق، ص. ٢١.

وقع جسيم على حياته، فهو أحس آثارها ولمدة طويلة جداً بعد حدوثها، مثل ثقافة الاستعمار وسياساته، واحتلال فلسطين. فالرهانات السياسية والأخلاقية والحقوقية لهذه الوقائع تبقى حية جداً.(٢٩)

لقد انبنت سيرته على مفهوم الغياب، غياب المكان/الوطن، والحياة/حياته المهددة بالغياب بفعل المرض المميت. لذلك سأقلب التساؤل الكلاسيكي من: ماذا تعرّفني سيرته عن حياته وحياة الآخرين، إلى ماذا يعرّفني هذا الحدث الجلل وهو خسران الوطن عن سيرته؟ إنه ينطلق من إبراز خطوط التصدع والانكسار في هويته faultline تلك التي أحدثت اضطراباً في ماهيته وصيرورته. فيبدأ من اضطراب المكان الذي أدى إلى اضطرابه اللغوي والثقافي، ليصل بالنتيجة إلى اضطراب هويته. جعل ادوارد سعيد من المكان مفهوماً محورياً، فهو مقياس الزمن، ومقنن العيش والعلاقة بالآخرين.(٣٠) فاستدعاء زمن الوطن الغائب/الحاضر واستذكاره يخضع لارتباطات مكانية تتحكم بالسرد. فهو لا يشوش انتظارنا الدلالي ولا يهدف إلى أن نشكل نظاماً لتعاقب الأحداث، بل إن الزمن يتوقف عند محطات مكانية، بمحمولاتها الزمنية والنفسية والسياسية. ففي تقطيعه زمن الحكايات التي يرويها، ورواح هذا الزمن ومجيئه بين تقدم وتأخر، وعيش الكاتب في أماكن عديدة، قد خلق إيقاعاً طباقياً مكانياً وليس زمنياً. خصوصاً وأن السرد توقف عند حيز الأزمات الشخصية ومحطات الانحسارات العامة.

يتوقف الكاتب عند وصف تغير هوية المكان/الوطن بعد الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، فالمنزل العائلي والحي وأماكن اللعب فيه تغيرت معالمها.(٣١) وهنا من المفيد أن نذكر أن الكاتب يستخدم أسلوب التواتر والتكرار narration répétitive فتغير هوية الوطن وتغير هويته الخاصة، مترافقان ومتكرران على امتداد السيرة. فهوية بلده تعاني «تبدلاً لا عودة عنه»(٣٢) فلقد «أُجلِيَت أسرة عمتي نبيهة عن القدس على مراحل».(٣٣) وفي اتباعه هذا الأسلوب أراد استعادة المكان كحيز للمتعة وقد انقلب إلى حيز للقهر،

(٢٩) مثل ردود فعل التيار الإسرائيلي اليميني في أميركا بعيد صدور هذه السيرة. المصدر السابق، ص. ١٠-١١.

(٣٠) هكذا يفند إحساس العائلة بالوحدة في القاهرة بالمقارنة مع عيشهم في فلسطين حيث غابت الوحدة وحيث «يلازمنا دائماً سائر أفراد العشيرة، (...) كانت فلسطين مكاناً أُسلِّم به تسليماً، بما هو الوطن الذي انتمي إليه، يعيش فيه أقرباء وأصدقاء بطمأنينة لا تحتاج إلى تفكر». المصدر السابق، ص. ٤٥-٤٦. ومع غيابه «كعائلة، ازددنا التصاقاً بعضنا ببعض، بعد أن لم يعد من قدس إليها نعود». المصدر السابق، ص. ١٦٦.

(٣١) المصدر السابق، ص. ٤٦.

(٣٢) المصدر السابق، ص. ١٤٨.

(٣٣) المصدر السابق، ص. ١٤٩، ١٦٠-١٦١.

وأرض للانفعالات الخصبة[٣٤]. ضمت سيرته أمثلة عديدة تشير إلى ملاحظته التغيرات التي طرأت على أسرته الموسَّعة بعد ضياع فلسطين، وهي تغيرات سلبية تنم عن الانتكاس المعنوي والمادي.[٣٥] الآن، ومن مسافة من الأحداث يتنبه إلى قمع التعبير السياسي في بيته، الذي يعود بالدرجة الأولى، إلى تغيير المكان/الوطن، فأي مكان آخر ومهما كان يجسد الهشاشة.[٣٦] هكذا يوازي بين غياب الوطن وتغييب التعبير السياسي وقمعه، من خلال منظوره إلى هذا الحدث «كان ثمة نشاز خبرناه جميعاً بوصفنا أجانب في القاهرة لا نستطيع الاستعانة بوطن لنا».[٣٧] على أننا نستدرك للسؤال: هل إن تغير هوية وطنه الذي أدى إلى تغير في أنماط تفكيره وعيشه، حيث عاش تجربة الاقتلاع والنفي وتجربة الاستعمار، كان دافعاً له لعبور الأمكنة، أي عبور الهويات ورفض السجن في هوية واحدة؟

يتقاطع هذا الموقف السياسي القمعي الناجم عن فقدان الوطن، مع موقف آخر، أشد قسوة، يعود إلى عدم استحصال والدة الكاتب على وثيقة سفر أميركية، كما هي حاله وحال أخواته[٣٨]. فكلما حاول الكاتب أن ينسى نفسه/ هويته، وأن ينخرط في العيش، وجد نفسه حاملاً دلالة أعمق لهويته الفلسطينية وأكثر تراجيدية، إذ «لعبت فلسطين دوراً أكثر إشكالاً في النزاع النامي ببطء بين أبي وشركائه في العمل: عمتي نبيهة وأبنائها»[٣٩] «ذلك بعد اضطرارهم إلى ترك فلسطين حيث فرع الشركة والمجيء إلى القاهرة.»[٤٠] هكذا تتجاور العلاقات العائلية التي تصدعت حديثاً مع صدوع فلسطين المستجدة.

(٣٤) يقول: «يغمرني الآن إدراك لهول التفكك الذي عانته عائلتنا وأصدقاؤنا، وقد كنت بالجهد واعياً له، أنا الشاهد الذي لم يشاهد شيئاً في العام ١٩٤٨. وحين كنت صبياً في الثانية عشرة والنصف في القاهرة، غالباً ما كنت ألاحظ أمارات الحزن والحرمان على وجوه وفي حيوات أناس عرفتهم سابقاً بما هم أبناء الطبقة الوسطى العاديون في فلسطين (...) وغالباً ما كانت عمتي نبيهة تتحدث بكآبة واستفظاع وهي تصف أهوال أحداث دير ياسين.» المصدر السابق، ص. ١٥٣-١٥٤.

(٣٥) إنه على سبيل المثال يصف ابن خال أبيه، شبير الشماس قائلاً: «الشيخ ذو السطوة والجاه في القدس، ظهر الآن في القاهرة وقد شاخ وازداد هزالاً، يرتدي بذلة رمادية لا تتبدل..» ص. ١٥٤. ثم يعرض دور عمته نبيهة في الاهتمام باللاجئين، من حيث مساعدتهم في توفير أذونات عمل وسكن ومساعدات مالية. ص. ١٥٦.

(٣٦) المصدر السابق، ص. ١٥٧.

(٣٧) المصدر السابق، ص. ١٦٨، ص. ٢٢٥.

(٣٨) يقول «لم يكن أحد يتجشم عناء أن يشرح لنا ان وجود أمي الشاذ بيننا كما تدلّ عليه وثيقة سفر محرجة إنما هو ناجم عن تجربة اقتلاع جماعية صاعقة». المصدر السابق، ص. ١٥٧.

(٣٩) المصدر السابق، ص. ١٦٧.

(٤٠) المصدر السابق، ص. ١٦٨.

في هذا السياق اضطربت هويته سواء في القاهرة[٤١] أو في أميركا. فحين ذهب في الصيف إلى أميركا وهو لم يتجاوز عامه الثاني عشر وشارك في التخييم بعيداً عن أهله سرعان ما أشعرته تجربته الجديدة بهويته الأجنبية «القلقة والموقتة جداً».[٤٢] ليس ثمة أساليب رحيمة لإعادة صوغ ذاته مع اضطراب مكان عيشه وتناسله إلى أمكنة عديدة، إذ أدى «عدد متزايد جداً من المغادرات إلى زعزعة أركان حياتي منذ بداياتها الأولى.»[٤٣] فما بقي في ذاكرته من فلسطين هو واقعها المعذب، لذا يصور الطبيعة الترحالية التراجيدية للوجود الفلسطيني، وهو يشهد على مأزق الفلسطيني بين التوق إلى كسر الحدود الفيزيائية والثقافية، والشعور بالتهديد بالنفي. فالمكان/الوطن يفترض حركة حرة باتجاهين: الدخول إليه والخروج منه. غير أن مكان ادوارد يستبعد حرية الحركة ما دام الخارج منه هو في حقيقة الأمر مستبعداً ومقصياً ومنفياً.

لذلك فإنه حوّل المكان-الأم المصدوم إلى مقياس يقيس به الزمن والأمكنة وعلاقاته بالآخرين وبالأشياء، كما جعل منه حيزاً للقص التذكري، أي حيزاً لتجربة الكتابة عنه. فحوَّل بذلك مكانه/أي لا مكانه إلى مكان للتاريخ ولقصته الخاصة، وليس هناك من مفر أمام القارئ/القارئة إلا الدخول إليه وتخيله معه[٤٤]. لقد ظل دخيلاً بشكل عميق في أماكن عيشه البديلة، هذه هي الحقيقة التي يواجهنا بها رغم كسره الحدود ومحاولته تحرير حركته. لذلك تبتكر الكتابة السير ذاتية المكان المفقود، أو بالأحرى موضوعاً مكانياً وموقعاً مكانياً.

(٤١) يقول: «لم يكن الشوق ما حفَّز مسيرتي لأني كنت لا أزال أتذكر بحدة كبيرة المفارقة التي لازمتني دائماً هناك بصفتي اللاعربيّ، والأميركيّ اللاميركيّ، وقارئ الإنكليزية ومتكلّمها الذي يناضل ضد الإنكليز، أو بصفتي الابن الذي يُضرَب ويُدلّل في آن معاً». ص. ٢٩٢. كما نجد الملاحظة عينها في موقع آخر، ص. ٤٣.

(٤٢) المصدر المذكور، ص. ١٧٧.

(٤٣) المصدر المذكور، ص. ٢٧١-٢٧٢.

(٤٤) هذه «المذكرات هي، في وجه من وجوهها، استعادة لتجربة المغادرة والفراق إذ أشعر بوطأة الزمن يتسارع وينقضي. ولما كنت قد عشت في نيويورك بإحساس موقت على الرغم من إقامة دامت سبعة وثلاثين عاماً، فقد فاقم ذلك من ضياعي المتراكم، بدلاً من مراكمة الفوائد». المصدر السابق، ص. ٢٧٦. ثم أضاف «وهنا أيضاً شعرت بأن قدومي من جزء من العالم في حال من المخاض الفوضوي، صار يرمز إلى أني في غير مكاني(...) أرى إلى نفسي هامشياً، وغير أميركي، ومنبوذاً ومعيباً، تحديداً في الوقت الذي صارت فيه السياسة في العالم العربي تلعب دوراً متزايد الأهمية في الحياة الاميركية»، المصدر السابق، ص. ٣٠٦. ربما تعود نظرية السفر عند ادوارد سعيد إلى إحساسه هذا بأنه في غير مكانه، يقول: «ما الوعي النقدي في أساسه إن لم يكن نزوعاً، لا سبيل لإيقافه، نحو (إيجاد) البدائل؟». انظر: الحق يخاطب القوة، المصدر المذكور، ص. ٩٥. كما أنه وضح في معرض آخر ذلك الإحساس بأنه غير مرغوب به هو أيضاً كان «إحساسي لدى كتابتي «الاستشراق» ». انظر: الحق يخاطب القوة، المصدر السابق، ص. ٦٢.

إلى جانب تجربة النفي، عاش ادوارد سعيد تجربة الاستعمار، هو المفكر الذي عمّق فهمنا للظاهرة الاستعمارية، إذ يعود إلى مرحلة تعليمه في القاهرة، وخصوصاً في فكتوريا كولدج التي اتسمت بالتشويه الكبير، وبـ «باتولوجيا القوة»[٤٥] وفقاً لما يؤكده.[٤٦] تشير هذه الملاحظات الثاقبة عن النظام التربوي الاستعماري الذي نشأ عليه صغيراً، إلى ادوارد سعيد الناقد للحالة الاستعمارية عبر تجربته الشخصية، حيث كشف سطوة الثقافة الاستعمارية وأساليبها التطويعية اللانسانوية الذي أوقع هويته في مآزق غياب حرية التعبير عن الذات، عن طريق إلغاء إمكانية معرفة الذات، الذي جعل علاقته ملتبسة باللغات الأجنبية.[٤٧] نجد في هذه الإشارة صدى لدور المثقف الذي ارتآه ادوارد سعيد، أن يكون «أداة لبعث الذاكرة المفقودة» وأن يكون شاهداً ضد إساءة استخدام التاريخ ومظالم العصر التي تصيب المقموعين.[٤٨] ولن تقف التناقضات عند حد النظام التربوي المدرسي، وتَعلُّم اللغات الأجنبية واستبعاد اللغة الأم، بل أصابت في الصميم اسمه نفسه، وهو عنوان هويته، والمعلن عنها «ادوارد سعيد»[٤٩]. كما لو أن قدر ادوارد سعيد في تسميته العربية والإنكليزية وقدر فلسطين التي دعيت زوراً بإسرائيل يتطابقان.

يمزج الكاتب بين التاريخ والذكريات الشخصية، فنجد امتزاج الذكريات الشخصية من حيث علاقاته بأهله، بمعلميه، بالمدرسة، جنباً إلى جنب تاريخ فلسطين، القاهرة، لبنان، أميركا، تلك الأماكن التي عاش فيها إثر ترك عائلته فلسطين[٥٠]. لكنه مرة يشير إلى موقفه السردي على أنه شاهد على الحدث، ومرات أخرى على أنه ضحية له. وهذا ينطبق على مجمل السيرة، حيث يأخذ الحدث بعده الكامل، حين يرفد التاريخ الكبير

(٤٥) تعبير استخدمه إقبال أحمد، واستشهد به ادوارد سعيد مراراً. انظر: الحق يخاطب القوة، المصدر السابق، ص. ٦٢.

(٤٦) يقول «كانت النظرة السائدة إلى التلامذة أنهم أعضاء، تمموا دفع اشتراكاتهم، في نخبة كولونيالية مزعومة يجري تعليمها فنوناً إمبريالية بريطانية قضت نحبها، مع أننا لم نكن ندرك ذلك تماماً (...) فلا عجب أن لا نتلقى أبداً التعليم المناسب عن لغتنا وتاريخنا وثقافتنا وجغرافية بلادنا(...) فقد بتنا ندرك جميعنا أننا دونيون نواجه قوة كولونيالية جريحة وخطرة بل وقابلة لان تؤذينا، ونحن مجبرون على تعلم لغتها واستيعاب ثقافتها لكونها هي الثقافة السائدة في مصر». المصدر السابق، ص. ٢٣٣.

(٤٧) المصدر المذكور، ص. ٢٤٧. في موقع آخر يقول: «فلا نحن من معشر الإنكليز ولا نحن ننتمي إلى صنف الجنتلمان تماماً، ولسنا من ثم أهلاً لتلقي العلم أصلاً» ص. ٢٥٣.

(٤٨) انظر: الحق يخاطب القوة، المصدر المذكور، ص. ٢٩٥.

(٤٩) يقول: «هكذا كان يلزمني قرابة خمسين سنة لكي أعتاد على «ادوارد» وأخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الاسم الإنكليزي الأخرق الذي وضع كالنير على عاتق «سعيد»، اسم العائلة العربي «القح» المصدر المذكور، ص. ٢٥.

(٥٠) المصدر السابق، ص. ١٨٨.

بالتاريخ الصغير، وحين يدمج الحدث النفسي/العائلي بالحدث السياسي. على أن وضعية الفاعل في الحدث نتبينها في فعل كتابة السيرة وروايتها من وجهة نظره، ومن موقف المتمرد والغاضب ضد الهيمنة الثقافية والقهر الإيديولوجي، ومن كونه لا يخضع للسيطرة.(٥١) فيقدم لنا معنى تحرير نفسه من هيمنة الآخر والتماهي به.(٥٢)

خلاصة:

هذه أبرز معالم البراديغم التذكري الذي يقدمه للقارئ والذي يعود كفعل اجتماعي إلى تاريخانية الأفراد المرتبطة بتاريخانية الجماعة. فهو أراد بشكل مضمر/معلن قياس حياته بمقياس التاريخ، أي أن يصنع من نفسه فاعلاً في التاريخ، فلا يكتفي بترك أثر فقط لنفسه. ذلك لأن ذكرياته كما يعرضها، لا يمكن اختزالها إلى مجرد عودة إلى الماضي ونقل له، بل هي رغبة وفعل. فهو حين جمع نتفاً من ذكريات الطفولة واليفاعة، جعلنا ندرك أنه في إعادة إدخال الرغبة إلى التاريخ، يمكن للذاكرة أن تتآخى والحدث وأن تُظهر تراجيديته.

هذه هي استراتيجيته السردية التي قدمت للقارئ إطاراً استدلالياً للسيرة، وقد وسم سيرته بخط انكسار وتصدع زلزالي، نتيجة فقدان فلسطين، إذ ارتبطت الرغبة في وطن والاستقرار النفسي والمادي بالنقص. كان من نتائجه شعور الكاتب الدائم بعدم الاطمئنان والاستقرار واهتزاز الهوية، وبأنه دائماً «خارج مكانه». فالحاجة الملِّحة إليه حملت معها شعوراً بالإحباط، هذا الوجه السافر للنقصان. وما صياغته لهذا البراديغم التذكري الذي يجمع الخاص بالعام، التاريخ الذاتي بالتاريخ العام، إلا نوع من أنواع مقاومة الإخضاع والتشريط.

لهذه الأسباب جميعها يتعذر دراسة خطاب «خارج المكان»، دون دراسة القاعدة المعرفية التي انطلقت منها السيرة والتي أسست لرؤية الهوية من منظار معين، يستحيل دونه فهم خطاب ادوارد سعيد عن ذاته وعن عائلته وصديقاته. ذلك مكّننا أيضاً من استنتاج الالتقاء بين خطاب ادوارد سعيد السير ذاتي الذي وضع الخاص بالتقابل مع

(٥١) أهي صدفة أم استجابة لوضعه هذا حين اختار موضوع رسالة الدكتوراه «جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية»؟ أم رغبة في التعبير عما يعتمل في نفسه من جروح ثقافية – هو الذي ينتمي إلى ثقافتين وعالمين– وتمرد على النظام الاستعماري الأبوي المهيمن؟ وهل هي صدفة أيضاً أن يبدأ حياته البحثية بدراسة السيرة الذاتية، وينهيها بكتابة سيرته الذاتية؟

(٥٢) يؤكد: «أخذت أشق طريقي بالنضال، ساعياً، بنجاح متزايد، إلى التمسك بحساسية خاصة، بل إلى تنميتها، حساسية غرضها مقاومة التسويد والسوس الإيديولوجي الأميركيين وقد فعلا فعلهما في العديد من زملائي في الصف». المصدر السابق، ص. ٢٩٢.

العام وبين خطاب النسويات الذي أكد على التشابك بينهما[٥٣] ودورهما في بناء الهوية. عرّفتنا سيرته إلى تعلقه الكياني بأمه التي انفصل عنها صغيراً بناء على رغبة الأب في إكساب ابنه استقلالا ومهنة، أليس هذا ما قاده إلى استحضار المكان-الأم ودفعه إلى استعادة اللغة-الأم؟ أليست هذه هي حقيقته التي بحث عنها حين اقترب من الموت؟

ثانياً: هو والنساء

حين حلل فرويد ذكريات ليونارد دو فانشي عن الطفولة قدم فرضية الهوامات التي تُبنى في زمن متأخر عن الطفولة، ثم تُسقَط عليها، وأضاف أن ذكريات الطفولة ليس لها مصدر آخر، وذلك على عكس الذكريات الواعية في عمر النضج، فهي لا تُنتَج من خلال الحدث نفسه، بل يُعبَّر عنها فيما بعد في مرحلة متقدمة من العمر حين تكون الطفولة قد مضت. لذلك فإن الذكريات عنها تكون قد تغيرت، فتوضع لخدمة ميول لاحقة عليها بشكل يصعب فصلها عن الهوامات. ثم قارن بين هذه الظاهرة وظاهرة كتابة تاريخ الشعوب البدائية، فاستنتج أنه حين يُكتب تاريخ الماضي فإن أكثر من أثر له يتم تأويله بشكل خاطئ في الحاضر[٥٤]. كما أن التاريخ لا يكتب بدافع الحشرية الموضوعية، بل لكي يتم التأثير على المعاصرين وتقديم مرآة لهم. فذكريات الطفولة توازي من حيث منشؤها ومصداقيتها التاريخ المتأخر الذي كتب عن الشعوب البدائية.[٥٥] لكن كل واحد منا يؤمن بقصة طفولته كما تؤمن الشعوب بأساطيرها، وهل المسألة بالنسبة إلينا، هي الخيار بين الوهم والحقيقة؟ ألا يمكننا تصور أنه ينطبق على ادوارد سعيد توصيف روسو لنفسه «أنا طفل كهل»! بمعنى أن أطوارنا الزمنية عبارة عن طبقات متراصة إلا أن منبعها الأساس هو الطفولة التي تفيض على أطوارنا جميعها، وبالتالي فإن الطفولة تلازمنا حتى الكهولة؟ لنقل «طفولاتنا» تلازمنا، كما يقول فيليب دو جون الذي تبين له غياب التوأم بين رواية عائلته عن طفولته وروايته الشخصية، فصورته لدى العائلة تتناقض كليا مع ما يتصوره هو عن نفسه، لذلك شكك في امتلاكه وعائلته الذكريات نفسها والعلاقة عينها بذاكرته.[٥٦] إضافة إلى ذلك أكد فرويد أن

(٥٣) انظر على سبيل المثال، السير الذاتية لجورج ساند وسيمون دو بوفوار ومارغريت يورسنار اللواتي اتخذت سيرهن الذاتية أبعاداً نقدية اجتماعية وتاريخية وفلسفية، في: Jacques Lecarme, Eliane Lecarme-Tabne, L'autobiographie, op.cit, p. 117-118.

(٥٤) يقول غبريال غارسيا مركيز في سيرته: «ليست الحياة ما عشناه، بل ما نتذكره عنها وكيف نتذكره.» انظر: Gabriel Garcia Marquez, Vivre pour la raconteur, Grasset, Paris 2003.

(٥٥) Sigmund Freud, Un souvenir De Leonard de Vinci, trad.Marie Bonaparte, Gallimard, 1927, p.67-70.

(٥٦) Philippe Lejeune, Votre enfance en cinq leçons, APA- fevrier 2003 - N. 3 p. 51.

ذكريات الطفولة تتكون في عمر المراهقة، كما أكد وجود ذكريات–ساترة - souvenirs écrans[٥٧] وظيفتها أن تخبّئ وتُعيّن في الوقت نفسه أشياء أخرى منسية.

بالنظر إلى ما ذكرنا يصير ضرباً من المستحيل التحقق من دقة المعلومات الشخصية الواردة في هذه السيرة. إن ما يعنينا بالدرجة الأولى رؤية الكاتب لذاته وللنساء، حقيقته هو ومغامرته في الحياة[٥٨]، مع إقرارنا بتحولات الذاكرة métamorphose de la mémoire.[٥٩] وإذا أقررنا أيضاً كما استعرضت في الجزء الأول من الدراسة أن سيرة ادوارد سعيد الذاتية هي أساساً تساؤل حول الهوية والموقع الثقافي/الاجتماعي/السياسي انطلاقاً من تربيته في مدارس كولونيالية ودراسته لاحقاً في أميركا، وخسرانه فلسطين، وهجرات الأهل وعيش تجربة النفي؛ صار جائزاً الاهتمام بالخصوصية الثقافية/الاجتماعية لسيرته عن طفولته، كما تصوَّرها وتبعاً لخبراته الشخصية، خاصة في ما يتعلق برؤيته لأمه ولبقية النساء.

يفسح الكاتب للطفل ادوارد سعيد متسعاً ويعتمد نظرته للعائلة وللعالم. وحين يعتمد الكاتب على وجهة نظر الطفل، فإنه يفجّر وعيه الخاص بمجتمع الكبار. لذلك لا يمكننا اعتبار سيرة الطفولة على أنها استرجاعية نكوصية فقط، خاصة وأن الكاتب لا يتوقف عند الطفولة وحسب، بل يصير الطفل بالغاً ثم كهلاً. وفي الحالات الثلاث يسجل رؤية متماسكة لعالمه الحميمي العائلي، إذ يلقي ضوءاً جديداً عليه، مزيلاً فكرة الاستغناء عن التناقضات، مؤكداً أنها تشكل استمرارية حقيقية، حيث نرى شخصيته في أوجهها المتعددة. ربما نجد ضالتنا في المفهوم الذي ابتكره ريكور «الهوية السردية» identité narrative في محاولة منه لحل مفارقات الهوية الشخصية عن طريق وضع هذه الأخيرة في حيز الفعل السردي.

١ – هو ونساء العائلة

أ – الأم بين الاستراتيجيا والتراجيديا

تشير العودة للماضي إلى الرغبة في العودة إلى الأم، حاملة المعاني وحافظتها، فهي التي تساهم في بناء الذكورة وتشكيل رؤى الذات عن الذات وعن النساء. تُنصِّبُ

(٥٧) انظر: Freud, Névrose, psychose et perversion, éd.PUF, 1978, p. 131.

(٥٨) حين حاول يونغ، وهو الخصم التاريخي لفرويد، كتابة سيرته، مؤكداً على إمكانية كتابة تاريخ لاوعيه ووعيه، إلا أنه توصل في شيخوخته إلى رواية قصص لا يمكنه تأكيد صحتها، لكنها تمثل حقيقته ومغامرته الشخصية. انظر: L'autobiographie, op.cit. p.57.

(٥٩) من الطريف أن نعرف أن سارتر روى طفولته في كتابه "Les Mots" عام ١٩٦٤ بشكل مناقض لما رواه سابقاً في "Carnets de la drole guerre" 1939-1940

سيرته الأم كمحور استراتيجي لحياته في قطبيها الإيجابي والسالب، مُشكِّلة مصدر المعرفة لذاته ولغيره. فحول الطفل ادوارد «الهش» تحوم الظلال كما الأضواء، وهو مصدر القلق والمخاوف كما الأفراح، فمثلت الأم الحضور والغياب، الاستراتيجيا(خطط التنشئة والقولبة) والتراجيديا (المنح/المنع العاطفي). وهو يحيل موقعه ضمن هذه المعادلة إلى أنه: «تخترع جميع العائلات آباءها وأبناءها وتمنح كل واحد منهم قصة وشخصية ومصيراً، بل إنها تمنحه لغته الخاصة».(٦٠) فإذا انطلقنا من فكرة «الاختراع» بحد ذاتها للأهل وللأولاد، فإن ذلك سيسهل علينا مهمة ترصد صورته عن أمه وخطابه عنها، كما يقدمها/يخترعها. على أن هذه المفارقة ستنير الشخصية المركبة والمعقدة للكاتب والبنية المعقدة للسيرة، ونقصد بالتعقيد الغنى والعمق. وستكشف لنا السيرة دروباً pistes وطبقات زمنية strates temporelles تتقاطع فيما بينها لتبين أوجه العلاقة بينه وبين أمه.

ب – سجل الأم: سجل القهر والحنان(٦١)

لاحظنا خيوطاً في السرد تنسج لازمة leitmotif مثل اللازمة في أوبرا فاغنر، واللازمة هي صورة أمه كعطاء مطلق وارتداد عنه. فأحد أهم أهداف هذه السيرة الذاتية محاولة الكاتب فهم هذه العلاقة بينه وبين أمه التي تتأرجح ما بين هذين الحدين.

ينطلق الكاتب من المطابقة بين دربه ودرب أمه، التي تشبه إلى حد ما، المطابقة بين أبيه ووالده وعلاقة أبيه بوالدته. وهنا أجد أنه يستحيل الحديث عن علاقته بأمه دون إبراز تداخل هذه العلاقة بعلاقته بأبيه، فالعلاقة بين الابن والأم علاقة بين ثلاثة.(٦٢) يبدأ من تماثل المصير بينه وبين أمه على مستوى المرض وفقدان الوطن والعلاقة الملتبسة بأميركا، إثر سقوط فلسطين: «كانت فلسطين قد سقطت ونحن غافلون عن حقيقة أن حيواتنا تقودنا إلى الولايات المتحدة حيث سنعيش أنا وأمي ونُصاب بمرض السرطان الذي سوف ينهي حياتينا في «العالم الجديد»».(٦٣) نضيف إلى هذا التماثل المصيري، التماهي بخصال أمه، وهنا يتم التأكيد على عامل الوراثة

(٦٠) المصدر المذكور، ص. ٢٥.

(٦١) نجد دائماً في كتابات ادوارد سعيد ميله إلى إبراز المفارقات paradoxes، وإثارتها في معالجته للعديد من القضايا الفكرية. انظر على سبيل المثال: Edward W. Said, Daniel Barenboim, Parallèles Pradoxes, Explorations musicales et politiques, Le serpent à plumes, Paris 2003.

(٦٢) تقدم باحثتنان فرنسيتان دراسة مهمة عن علاقة الأمهات ببناتهن، وقد استعرت عنوان دراستيهما لأطبقها على العلاقة بين الأبناء وأمهاتهم. انظر: Caroline Eliacheff et Nathalie Heinich, Mères-filles une relation à trois, Albin Michel, Paris, 2002.

(٦٣) المصدر المذكور، ص. ١٧٤.

الأمومية وقوته. ابدأ من الخاتمة حيث يقول «والآن أُخمِّن أن عجزي عن النوم هو آخر ما أورثتني إياه، على النقيض من نضالها هي لتنام (...) فأنا مثلها لا أملك سر النوم الطويل».[٦٤] ويؤكد في البداية «أمي كانت الرفيق الأقرب إليّ والأكثر حميمية خلال ربع قرن من حياتي. وإني أشعر أني مطبوع بالعديد من وجهات نظرها وعاداتها التي لا تزال تسيّر حياتي: من قلق يشلّ إرادتها إزاء تعدد احتمالات التصرّف، إلى أرق مزمن، معظمه فرضته على نفسها فرضاً، وعدم استقرار عميق الجذور يضارعه مخزون لا ينضب من الحيوية الذهنية والجسدية، واهتمام عميق بالموسيقى واللغة وبجماليات المظهر والأسلوب والشكل».[٦٥] هكذا بين بداية السيرة وخاتمتها تطابق بين الصفات وتأكيد لانتمائه الوراثي الأمومي.

من الوراثة ينتقل إلى تمثيل الأم المرجعية له في مختلف مراحل حياته، مرجعية حقيقية أو متصورة،[٦٦] فيؤكد عودته إلى أمه أولاً حين تعرّضه لأي مشكل، فحين اصطدمت سيارته في سويسرا بسائق دراجة «كانت أول إنسان شعرت بالحاجة إلى أن أقص عليه قصتي (...) ذلك أن شعوري بأني أبدأ حياتي بأمي وبها أنهيها، وبحضورها الداعم وبطاقتها غير المحدودة على تدليلي -أو هذا ما كنت أتخيله- كان بمثابة الضمان الرفيق والخفيّ لحياتي خلال سنوات وسنوات».[٦٧]

هذا هو منظور ادوارد سعيد إلى موقع أمه في حياته وهذه هي قناة التوصيل canal de communication التي اعتمدها كي يدرك القارئ إلى أي مدى تُشكِّل أمه المدار الذي يدور في فلكه أو بالأحرى بؤرة الرؤية للذات وللآخرين. لذلك فإن التماثل في المصير والتماهي بعوائدها وطباعها، وتجسيدها المرجعية الفضلى النفسية والمعنوية، تؤول إلى استخدامه خطاب العاطفة في البرهنة على وثوقية العلاقة وزخمها. وعلى عكس البلاغة الكلاسيكية التي كانت أحكامها سلبية عن الأبعاد العاطفية للخطاب، فإن معالجات الخطاب الحديثة تعتمد على تمثلات الكاتب للعالم وتوقعاته ومزاجه. إذ يطرح تحليل الخطاب العلاقة بين العاطفة والعقل ليستنتج مدى ترابطهما وتداخل

(٦٤) المصدر السابق، ص. ٣٥٨.
(٦٥) المصدر السابق، ص. ٣٥-٣٦.
(٦٦) المصدر السابق، ص. ٣٥٥.
(٦٧) المصدر السابق، ص. ٣٥٥-٣٥٦. وأضاف قائلاً: «فعندما كنت أعاني تحولات جذرية-فكرية أو عاطفية أو سياسية- كنت متأكداً من أني أستطيع الاعتماد اعتماداً كاملاً على شخص أمي المثاليّ وصوتها واهتمامها وحنوها الأمومي الغامر. وعندما وقع الطلاق بيني وبين زوجتي الأولى، اعتقدت أن أمي هي التي أخرجتني من الارتباك العظيم الذي وقعت فيه، على الرغم من التباساتها الاستثنائية التي شئت أن أتجاهلها أو أن أجاوزها».

العواطف في المعارف، ومدى قصدية العواطف.[٦٨] هذه هي منصة الانطلاق التي يضع الكاتب عليها القارئ كي تصل رسالته إليه بأسرع ما يمكن ودون لبس، ليقاسمه مشاعره. خصوصاً وأن السيرة الذاتية كنوع من أنواع الخطاب، تستدعي مشاركة القارئ في مشاعر الكاتب.[٦٩] كما أن انطلاق السيرة من الطفولة، بما تحمله الطفولة من دلالات البراءة، تجعل القارئ أكثر حساسية لمصير الكاتب ومصير أمه. والنقطة الأهم أن السيرة تنطلق من المرض الشبيه، الذي أصاب الوالدة ومن ثم ابنها، فماتت الأم، وهي أول من توجه إليه حين شعر بالحاجة إلى كتابة سيرته بعيد بلوغه خبر مرضه،[٧٠] والابن يكافح في سيرته لعيشه[٧١] ولقبول فكرة الفناء.

يستفيض الكاتب في بناء العواطف التي تجمعه بأمه في خطابه، وهي تُبنى على قواعد معيارية وقيم، إضافة إلى معتقدات غير مرئية تتضمن الأسباب التي تثير العواطف. وسنبين ذلك من خلال عرضنا لخطابه العاطفي عن أمه وخطابها العاطفي عنه والمنقول إلينا من قبله. فمعرفة ذاته مشروطة بمعرفتها.

ج - خطابه العاطفي عن أمه

يبدأ خطابه العاطفي عن أمه من عدم التمييز بين التجربة المعاشة والكتابة عنها، عن طريق تضمين العلاقة بالماضي في الحاضر، متأملاً من وقت إلى آخر كيف يعيش فيه هذا الماضي، وفي أية صيغة. بحيث يصعب التفريق بين صوت الكاتب وصوت الرجل الناضج الذي نوى سفراً غير مضمون النتائج إلى الطفولة، وصوت الطفل الذي يبقى صعب المنال إلا بحدود. ولضمان أقوى فعالية تأثيرية لخطابه عن أمه بعد أن استعرض علاقة التشابه/التماثل بينه وبينها، يقدم بطاقة تعريفية لأمه كي يضع القارئ في مناخ نفسي تحليلي، يعينه على التقاط ماهية هذه العلاقة التي تربطه بأمه بمعزل عن الاختزال والسطحية. هي فلسطينية من أم لبنانية والدها قسيس معمداني أقام فترة

(٦٨) انظر: Dictionnaire d'analyse du discours, op.cit, p.214-220.

(٦٩) Ruth Amossy, op.cit., p.181.

(٧٠) يقول: «بعد مضيّ شهر على ذلك التشخيص، وجدتني أكتب رسالة إلى أمي المتوفاة منذ سنة ونصف السنة. وهي عادةٌ درجنا عليها منذ مغادرتي القاهرة عام ١٩٥١. فكأن الدافع إلى التواصل معها تغلّب على حقيقة موتها.» المصدر المذكور، ص. ٢٦٨. كما أثار هذه النقطة مجدداً ولاحقاً على كتابة السيرة في: تأملات حول المنفى ١، ترجمة ثائر ديب، دار الآداب، ص. ٣٦٩ حيث يقول: «كنتُ ما أزال أحاول استيعاب شرطي الجديد، وجدت نفسي أكتب رسالة شارحة طويلة إلى أمي، التي كانت قد توفيت قبل ما يقارب السنتين، رسالة دشّنت محاولة متأخرة في فرض سرد على حياة كنت قد تركتها وشأنها إلى هذا الحد أو ذاك، غير منظمة، مبعثرة، وبلا مركز.»

(٧١) انظر المقالة التي كتبتها حين بلوغي خبر وفاة ادوارد سعيد، وكنت آنذاك لم أنتهِ بعد من هذه الدراسة: معاناة قارئة سيرته من فراقه، ملحق نوافذ، جريدة المستقبل ٤ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٣. ثم نشرت في موقع جهات الشعر الالكتروني: www.jehat.com

في تكساس، تتقن العربية والإنكليزية[٧٢]، «عام ١٩٣٢، بلغ أبي مستوى من اليسر مكّنه من أن يتزوج وأن يصطحب زوجته الأصغر منه بكثير – كانت في الثامنة عشرة وهو في السابعة والثلاثين – لقضاء «شهر عسل» استغرق ثلاثة أشهر في أوروبا. تم الزواج بتدبير من عمتي نبيهة من خلال علاقاتها في الناصرة، وأسهمت في التدبير، ولو بدرجة أدنى، خالة أمي في القاهرة.»[٧٣] وهي البنت الوحيدة بين أربعة صبيان، كانت الأثيرة لأبيها[٧٤]. درست في المدرسة الأميركية للبنات الداخلية في بيروت ثم في «الجونيور كوليدج»، كانت متفوقة في دراستها «وتتمتع بشعبية كبيرة». «عام ١٩٣٢، اقتلعت أمي من حياة بيروت الرائعة ونجاحاتها، أو هكذا جرى تجميل تلك الحياة لاحقاً، وأعيدت إلى الناصرة الصارمة لتزف إلى أبي في زواج مُعدٍّ سلفاً.»[٧٥] وأخيراً «تراءت لي أمي امرأة في مقتبل العمر، غير معقدة، موهوبة، محبة، جميلة».[٧٦]

بعد هذا التعريف بأمه يؤول ادوارد زواجها من أبيه، فهو المتكلم الذي يستعيد في السيرة سلطة الكلام، فيتكشف لنا الزاوية التي ينظر من خلالها إلى أسرته. فعندما ينظر إلى الأحداث من زاوية الأم المتعلق بها، يصبح من الطبيعي ان تلصق بالأم الصفات العاطفية وبالأب الصفات السلبية التي تجسد القوة والنفوذ، وتلصق بعائلة الأم صفات المنفعة المادية «على أني لم أشك لحظة في أنها أصيبت بصدمة كبيرة عند اقترانها من ذلك الأربعيني الصامت والجبّار. فقد انتزعت من حياة سعيدة في بيروت وسُلِّمت إلى زوج يكبرها بكثير.»[٧٧] إنه يوجّه القارئ نحو نظام من التدليل الثقافي/ الاجتماعي الذي خضعت له أمه، والذي يعتمد على عناصر ثلاثة: القوة، الإخضاع، السيطرة. فيرسم للأم صورة النجاح والتميز التي سرعان ما قمع نموها بعيد زواج مدبر من زوج يكبرها والعيش في الغربة. ها هو يحرر اليوم في سيرته الذاتية سيرة أمه من هذا النظام الثالوثي.

إننا أمام بداية لافتة، لعل أهم وظائفها الاستحواذ على مشاعر القارئ بحيث يسهل لاحقاً توجيهه إلى قبول تصوراته وأفكاره تجاه أمه، وتجاه أبيه وإخوته. يؤدي هذا التكتيك – عرض البينات – إلى كشف العلاقة القطبية بينه وبين أمه التي قدمناها في البداية.

(٧٢) المصدر المذكور، ص. ٢٦–٢٧.
(٧٣) المصدر السابق، ص. ٣٤.
(٧٤) هو أيضاً، وحيد بين أربع بنات، والطفل الأثير لأمه!
(٧٥) المصدر السابق، ص. ٣٧
(٧٦) المصدر السابق، ص. ٣٦.
(٧٧) المصدر السابق، ص. ٣٨.

تعتمد هذه العلاقة القطبية على عنصر المفارقة بين التعبيرات العاطفية الإيجابية للأم تجاهه والتعبيرات السلبية المناقضة لها. على سبيل المثال تشير الجمل المنطوقة بلسان أمه والتي رددتها له حتى كبره، إلى طاقة بلاغية دفاقة من العواطف التي تثير العقل والنفس، مثل «تسلم لي» و«روحها للماما» وغيرها «كانت تلك العبارات جزءاً من مناخ الأمومة الغامر الذي أحنّ إليه في الأوقات العصيبة، وتضفي عليه رقة عبارة «يا ماما» مناخاً يغري كالحلم». لكن سرعان ما تنسحب هذه الطاقة مُخلّفة وراءها خيبة لا مثيل لها «وإذا به (الحلم) يُنتزع فجأة منك انتزاعاً بعد أن يكون قد وعدك بأشياء لم يفِ بها أبداً».(٧٨) وفي موقع آخر فإن المقطع السردي الواحد قد بني على مفارقات عدة تدل عليها أدوات الربط مثل «إلا أنها» و«على أنها» النافية والمستدركة، فننتقل من كون أمه «ملجأ» و«مأوى» ومن «الألفة بيننا» و«الحب والتفاني» و«ابتسامة أمي المقوية»، إلى ما يقابلها «كانت تحمل أعمق الالتباسات التي عرفتها وأكثرها إشكالاً تجاه العالم وتجاهي أنا شخصياً» و«قد تصد مشاعري فجأة، باعثة رعباً ميتافيزيقياً في أوصالي لا أزال أمثله بانزعاج شديد، بل برهبة قوية». كان من نتائج هذه المفارقة العاطفية أن «وجدت طفلاً سعيداً وعظيم اليأس في آن معاً».(٧٩) تدل هذه الروابط على التغيير الاستدراكي المتعارض الذي لا يدل فقط على مجرى الأحداث الاستثنائية فحسب، بل قد يشير أيضاً إلى الأحوال التي لم تكن متوقعة ولا مرغوباً فيها. إنها علاقات غير متوقعة تشير إلى ملابسات متعارضة.(٨٠) وبوجه عام، فإن اختلاف الجمل وسلسلة مركبة منها قد استعمل لغاية تغيير مرجع الخطاب ووجهة النظر والإدراك الحسي والمعرفي على نحو أكثر قرباً من زمن السرد.

هذه الحالة المفارقة والمتعارضة ستسم مساره وأفكاره وهويته. الأم هي الرفيق العاطفي والفكري التي تغدق عليه العناية والاهتمام «على أن هذه المبالغة لم تكن لتحجب تشاؤمها الداخلي الشديد الذي كان يموه غالباً إعلاناتها الإيجابية عني».(٨١) هذه المراوحة بين علاقة مطمئنة وعلاقة قلقة وسمت شخصيته وأوقعته في اضطراب التكيف مع أمزجة الأم. وستتردد أصداء هذه الكلمة مراراً في السيرة، حيث يتوقف عندها دائماً للدلالة على المفارقة في علاقته بأمه التي اتسمت في الوقت نفسه، بدلالات إيجابية وبدلالات سلبية. ها هو يلخص الموقف قائلاً: «أنا ابنها المثير لإعجابها والعائر

(٧٨) المصدر السابق، ص. ٢٦.

(٧٩) المصدر السابق، ص. ٣٦.

(٨٠) انظر: فان دايك، النص والسياق، استقصاء بحثي في الخطاب الدلالي والتداولي. ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠. ص. ٨٢-١٢٣.

(٨١) المصدر السابق، ص. ٣٦.

في آن معاً (...) فكان حبها لي جميلاً ومكبوتاً في الوقت نفسه».(٨٢)

لكن هذا الافتراق بين التوكيد والنفي، مربوط بعلاقته بأبيه وبعلاقة أمه بأبيه. فهو في كل مرة أكّد فيها على هذه المفارقة وهذا الاستثناء في علاقته بأمه، فإنه يتبعها أو يسبقها ملاحظة حول علاقته بأبيه أو علاقة أمه بأبيه كما يتصورها. فمثلاً يسبق هذا المثل الذي أدرجناه ملاحظة حول «صدمة» أمه عند زواجها من «ذلك الأربعيني.»(٨٣) ثم يتبعها بملاحظة عن علاقته بأبيه «هكذا نشأت متأرجحاً بين أن أكون ابناً جانحاً – في عين والدي – أو ابن أخت أخوالي الكلي الطاعة(...)على أني كنت (...) أتساءل ما إذا كان يجوز أصلاً أن أعتبر نفسي ابنه»(٨٤). ويشير هذا السياق إلى رؤية تحليلية نقدية للكاتب مدعمة بثقافة في علم النفس التحليلي والسوسيولوجي، تجعله محللاً نفاذاً، فنراه ينتقل من صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب «وقد كانت عملية خلقه (ادوارد) واجبة الوجوب لأن والديه كانا هما أيضاً نتاج عملية خلق للذات بالذات، فلسطينيين ينتميان إلى بيئتين مختلفتين ومزاجين متغايرين جذرياً، يعيشان في القاهرة الكولونيالية بين أقلية مسيحية تعيش هي نفسها ضمن حومة من الأقليات ليس لأي منهما سند سوى الآخر، وهما يفتقران، فوق ذلك كله، إلى أية أعراف يهتديان بها في سلوكهما».(٨٥) وهو في استرجاعه هذه المواقف يمزج بين زمني الماضي والحاضر، أي حاضر الكتابة حيث يعلّق على هذه المواقف ويحللها، كي يرتب ماهيته بالنظر إلى علاقاته مع أمه وأبيه، فهي التي تبني هويته وفق التحليل الفرويدي. وما استخدامه ثقافته التحليلية وتنقله بين الضمائر والأزمنة إلا دليل على توقف ادوارد سعيد عند الكيفية التي تم بها تكوّن هذا الموضوع،(٨٦) فهو في آن معاً موضوع السيرة وكاتبها، المُتكلِّم والمُتكلَّم عنه.

نجد هذه المفارقات في مواضع عدة وفي مراحل عمرية مختلفة، فهو يصف مثلاً، أحلى ذكرياته عن أمه حين كان في «إعدادية الجزيرة»، ولكنها كالعادة حلاوة مشروطة بنقيضها «أجد أمي دائماً في انتظاري لنتجاذب أطراف الحديث (...) كانت تفسر لي سلوك الأساتذة، مثلما تفسر لي مطالعاتي، بل تفسرني أنا نفسي لنفسي. كنت (بحسبها) تلميذاً شاطراً (...) ولكنني متفاوت العطاء. على أن أمي (هل نتنبه إلى تكرار

(٨٢) المصدر السابق، ص. ٤٢.
(٨٣) المصدر السابق، ص. ٣٨.
(٨٤) المصدر السابق، ص. ٤٢.
(٨٥) المصدر السابق، ص. ٤٣.
(٨٦) في كتابه، تأملات في المنفى ١، المصدر المذكور، ص. ٣٧٧-٣٨٨ يثير قضية إعادة نظره بمفهومي الكتابة واللغة، مستنتجاً «لا أعلم إن كان عليّ أن أدعو هذا ابتكاراً دائماً للذات أم قلقاً متواصلاً».

الصيغة الاستدراكية!) كانت تبدو وكأنها تسلبني إنجازاتي، بطريقة لاواعية، بعد أن تمتدحها بقولها «طبعاً، أنت شاطر، بل فائق الذكاء، ولكن» – هنا توقفني فجأة – «ولكن ليس هذا إنجازاً حقيقياً من صنعك، ما دام الله هو من وهبك تلك المواهب».[(٨٧)] هكذا نلاحظ أن موقف أمه المفارق منه قد استبطنه الكاتب وعممه على نظام السرد المبني على المفارقات، سواء فيما خص علاقته بأهله، بمكانه أو بهويته عموماً.

ثمة تأكيد على دور أمه في دعمه نفسياً، خلافاً لأبيه، لكنه ينتقل من عبارات مثيل «عذوبة، شعوراً بالدعم» و«أرى نفسي في عينيها كائناً مباركاً وكاملاً ورائعاً» إلى عبارات أخرى تشير إلى اصطدامه بـ«قصر هذا الشعور. فأغتم للتو (...) وسرعان ما تتزعزع ثقتي مجدداً ويعاودني القلق والهواجس القديمة». ومع إقراره بدعمها النفسي له، فإنه لم يتحمل كونها «نقدية جذرياً تجاهي (...) تقنعك بالتزامها الكلي تجاهك من دون سابق إنذار، تشعرك أنها حاكمتك ووجدتك مقصراً.»[(٨٨)] ويخترق هذا المقطع وعلى سبيل التدليل، الصيغ الاعتراضية والانقلابية التي تتكرر: «على أن» «ولكن» «خلافاً» «على أني» «ولكن» «وعلى الرغم من» «مع أنها»، التي تدل على النفي والتناقض، ذلك ضمن بنية للجملة قائمة على التركيب الثنائي. ويشير تكرار هذه الصيغة إلى مكانة العاطفة في خطابه. أما هذه البنية السردية القائمة على المفارقة التي تسم علاقته بأمه وأبيه، والتي تتجسد بإضافة مصطلحات عاطفية لها مدلولات متناقضة، فإنها تُفهمنا إحباط الطفل منها واعتراضه عليها[(٨٩)]. فهناك طاقة عاطفية كبيرة وراء هذه المفارقة لا نعرف مصدرها بالتحديد، هل هو الراوي الطفل أم الراوي الكاتب، والتي تشير إلى تعلق الراوي بأمه وتمرده على أبيه وعلى مماثلته والتماهي به. هذه هي تراجيديته التي يرسمها والتي تعكس فلسفته في الحياة. وإذا كانت صورة أمه هي المحور الأساسي في سيرته الذي يعينه على فهم وجوده ووجود الآخرين في عالمه، وإذا كانا متماثلين في المرض، كما في أشياء أخرى، وإذا ارتبطت سيرته بانبعاث المرض وتهديد شبح الموت لحياته، عندها يمكننا القول إن هذه السيرة تجسد ما قاله هيدغر «أن تتفلسف يعني أن تتعلم أن تموت».

لكن ادوارد سعيد يمثل في سيرته وعلى مستوى العواطف صورة المقاوم الذي لا يستسلم، ولا يتطلع إلى رأب الصدع في علاقته بأهله، بل إن ما أراده هو التعبير عن

(٨٧) المصدر السابق، ص. ٧٣.

(٨٨) المصدر السابق، ص. ٧٣.

(٨٩) انظر: D. Maingueneau, Initiation aux méthodes de l'analyse du discours, Hachette université, Paris 1976, pp.59-62. اعتمدت على تحليله الدلالي للمعنى الذي يقوم على مبدأ التشبيه المنتظم بين الدلالات كي نصل إلى الفروقات فيما بينها داخل الخطاب وليس بمعزل عن شروط إنتاجه.

الحب من ناحية، والفهم من ناحية أخرى. ولأنه يبحث عن الحرية فإننا نراه يُخرج ما في جوفه، فهو يريد التحرر النفسي من قيود الذاكرة، من صعوبات الانتقال من الطفولة إلى المراهقة إلى النضج. إنها أيضاً صعوبات الذكورة في تأكيد نفسها، خارج الترسيمات الذكورية الجاهزة. لذلك عبّرت سيرته الذاتية عن تناقض ما بين تصورين لأمه: تصور مثالي وآخر ينزع عنها تلك المثالية. في الحالة الأولى نحن في نظام الأحكام وفي الثانية نحن في نظام الفهم. فهو أراد توضيح الالتباس في هويته، إذ تبعاً لأطروحات علم نمو الطفل، فإنه يمر بثلاث مراحل، الذوبان ثم الانفصال، والاعتراف المتبادل، وضرورة الاعتراف تماثل في الأهمية ضرورة أن يحظى باعتراف الآخر.(٩٠) وهنا تبرز مشكلة ادوارد الطفل واليافع مع التجاذب بين نظامين أبوي وأمومي، ذلك من خلال موقع الجسد في سيرته، حيث تكاتف الاثنان لإصلاح ذكورته. هكذا يصور الكاتب أولاً، ذكورة أبيه، على أنها تقليدية، بطركية(٩١)، قاسية، صامتة، وعاطفية(٩٢)، نظامية وانضباطية(٩٣)، تملكية(٩٤)، مغالية في رجوليتها(٩٥)، وإحدى تجلياتها الرئيسية محاولة الأب «حشر» ابنه «في قوالب معدَّة سلفاً»(٩٦)، وطابعها ذكوري من مثل «إرساله إياي إلى مؤسسات ذكورية تماماً ومتطلبة، مثل «ماونت هيرمون».. وبرنستون تالياً، إنما ليحميني لا من «العبث بجسدي» فحسب وإنما أيضاً من البذخ العاطفي الفائض والجياش الذي يشلني بسبب الشكوك والانفراجات التي تتناوب فيه.»(٩٧) لقد وضع إصبعه على الجرح. فالعاطفة مقرونة لديه بالنظام الأمومي/الأنوثي «الغامر». إلا أن هذا النظام وكما بيّنا اتصف بالمفارقة بين مدلولاته الإيجابية والسلبية، التي نمّت إحساسه بالقلق وبالتهديد. أما النظام الأبوي /الذكوري، الذي اتصف بالرسوخ العام والاستقرار في صوره(٩٨) فإن من مهامه كما تجلت في السيرة، تصحيح مسار ادوارد،

---

(٩٠) Mères- filles une relation à trois, op.cit, p.395.

(٩١) المصدر المذكور، ص. ٤٨.

(٩٢) المصدر السابق، ص. ٥٤.

(٩٣) لقد تكررت هذه الصفات في مواضع كثيرة في السيرة، على سبيل المثال «أبي كان مزيجاً طاغياً من القوة والسلطان ومن الانضباط العقلاني والعواطف المكتومة» ص. ٣٥. وفي موقع آخر «لم يترك لي نظام الضبط والتربية المنزلية الجامد الصارم الذي حبسني فيه أبي منذ سن التاسعة أي متنفس أو أي مجال للإحساس بالذات في ما يتجاوز قواعده وترسيماته». ص. ٤٣.

(٩٤) المصدر السابق، ص. ٢٠٤.

(٩٥) المصدر السابق، ص. ٢٠٤.

(٩٦) المصدر السابق، ص. ٢٠٨.

(٩٧) المصدر السابق، ص. ٢٦٣.

(٩٨) المصدر السابق، ص. ٩١.

الذي يدور في مدار الأمومة/الأنوثة «المتوسع باستمرار»[٩٩]، والذي يمتاز أيضاً بحركته الدائرية التي لا فكاك منها رغم التجاذبات. فحين أحبطت الأم مشاريع ايفا للزواج منه «كان إنجاز أمي غير المعلن أنها أعادتني من جديد إلى مدارها، وسمحت لي أن أنعم بحبها.»[١٠٠]

ونذكر في هذا السياق رفض الأم إرسال ابنها الوحيد إلى أميركا بعيداً عنها، وإحساس الابن بالذنب تجاهها، وقد عبر عن هذا الإحساس بشكل نفاذ «كانت عودتي إلى الولايات المتحدة في آخر الصيف تنكأ الجراح القديمة، فأعيد اختبار انفصالي عنها كأنه الانفصال الأول (...) وكان العزاء الوحيد هو رسائلنا المتبادلة والمتوترة والمهذارة في آن. ولا أزال أجد أني أعيش من جديد بعض جوانب تلك التجربة اليوم، وتحديداً إيثاري أن أكون في مكان آخر – وتعريفه أنه المكان الأقرب إليها والمجاز منها هي، والمغمور بحبها الأمومي الخاص، المتسامح والمضحي والمعطاء إلى أبعد الحدود – لأن وجودي «هنا» يعني أني لست حيث أريد أنا، أو يريد كلانا، أن أكون.»[١٠١]

هذا التجاذب بين النظامين الأمومي/الأنوثي والأبوي/الذكوري[١٠٢]، لم يتم دون توافق بينهما في بعض الأهداف، إذ تكاتفا سوياً من أجل إخضاع ادوارد لنظام تربوي منضبط وجدي وصارم كانت له آثار سلبية على مستوى الثقة بالنفس وهوية الجسد، إذ إن بعدَي التماهي بالأم وبالأب، أفرزا إشكاليات عدّة. فهو من ناحية نفّر من بُعد التماهي التام بالأب[١٠٣]، ذلك لأن صورة الأب مثّلت له القمع والقوة والسلطة والتملك

---

(٩٩) المصدر السابق، ص. ٩١.

(١٠٠) المصدر السابق، ص. ٣١٤.

(١٠١) المصدر السابق، ص. ٢٧٢.

(١٠٢) لقد وضعت التعريفين للامومي والأنوثي متلاصقين وكذلك فعلت بالنسبة للأبوي والذكوري، ذلك أنه من الجائز أن يكون النظامان أمومياً فقط وأبوياً فقط. فحين نلصق الأنوثي بالأمومي فإننا نشير إلى أن الأم هي أم وهي أنثى في الوقت نفسه وكذلك بالنسبة للأب الذي هو أب وذكر. بمعنى آخر ان الدور الأمومي لم ينفِ أنوثة الأم وكذلك الحال بالنسبة إلى الأب. إذ أحياناً تنتصر الأمومة في العلاقة مع الأبناء أكثر من الأنوثة وأحياناً تنتصر الأنوثة على حساب الأمومة. لكن في هذه السيرة فإنهما يرفدان بعضهما البعض. انظر للإيضاح حول هذه النقطة: Mères- filles, une relation à trois. op.cit

(١٠٣) على أن موقف ادوارد سعيد الرافض للتماهي الكامل بالأب، لا يعني البتة عدم التأثر فيه، إذ يقول: «فقط بعد مضّي عقود من الزمن على وفاته، أستطيع أن أستبين وجهي ميراثه لي وقد ارتبطا دونما فكاك في مفارقة مطلقة لا جدال فيها، حيث ينفتح القمع والتحرّر واحدهما على الآخر في لغز بدأت اعترف به للتّو، وإن كنت لا أفهمه تمام الفهم». ص.. وفي موضع آخر «كان يعتقد أن لا أمل لي في أن أصير رجلاً إلا إذا صرمت علاقتي بالعائلة. ثم إن بحثي عن الحرية وعن تلك الذات المتوارية خلف «إدوارد» والمطموسة به، ما كان ليبدأ أصلاً لولا ذلك الصرم. لذا عليّ أن أرى إليه بما هو حدث سعيد على الرغم مما أورثني من وحدة وتعاسة لفترات طويلة جداً.» ص. ٣٥٧.

والخشونة، فتمرد عليها وعلى كل السلطات[١٠٤] لاحقاً. ومجال الجذب الفعلي تمثّل بالبعد الأمومي العاطفي، الغني بعوالمه التخيلية الذي شجع الطفل على تذوق الآداب والفنون والموسيقى. وإذا تذكرنا أن ادوارد كان يريد أن يصير طبيباً في صغره، إلا أنه حين ابتعد عن الأم وبقرار من الأب، وذهب إلى أميركا، فإنه ارتدّ إلى نقطة الجاذبية الأولى، أي إلى الميول التي رعتها أمه لديه، فإننا ندرك مدى انجذابه إلى المجال الأمومي. وما وضعه صورة أمه في مركز الثقل في سيرته إلا تأكيد لما نقول.[١٠٥]

غير أن المدار الأبوي قاوم انجذاب الابن إلى المدار الامومي «فالمعادلة الضمنية التي نشأت في ظلها هي أنّ «إدوارد» يشبه أخواله (...). ولما كان أخوال «إدوارد» أبناء وأشقاء عاقين، فالأرجح أنه سوف ينتهي مثلهم، وهو ما يستوجب بتر هذا المسار وإعادة تربية الولد وإصلاحه (...) هكذا نشأت متأرجحاً بين أن أكون جانحاً – في عين والدي – أو ابن أخت أخوالي الكليّ الطاعة».[١٠٦] وهنا نتنبه إلى أن هذا التجاذب قد عبر عنه عن طريق استخدام أسلوب الخطاب المنقول الحر، ثم الارتداد إلى الأسلوب المباشر، والانتقال من صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب.

د – خطاب الجسد

تمثل هذه السيرة حقلاً خطابياً يتشكل من صفات خطابية مختلفة، نتوقف هنا عند العلامات التي تعين الجسد كي نتبين إلى أي درجة الجسد هو مصدر القول أو موضوع له، ولنظهر النظام الذي يُموضَع فيه الجسد، فنتمكن من تحليل كيفيات قوله. ذلك سيقودنا إلى استنطاق القول المستتر[١٠٧] حول هوية الأنا L'identité du moi.

على الرغم من التجاذب بين النظامين الأمومي والأبوي، إلا أنهما تكاتفا في عملية ضبط ادوارد ومحاولة تنميطه ضمن قوالب جاهزة، وإخضاع جسده إلى صورة مثال بعيدة عن «تشوهات» الوراثة الأمومية، وبعيداً عن قدرية الوراثة، وصولاً إلى ادوارد صنيع أهله؛ كما لو أن والديه يحتجان على أن يكونا أسرى هذه القدرية. إن شخصية الأب القوي، والناجح في أعماله، والمخلص لعائلته، والمدبر لشؤونها، لا يقوى على

(١٠٤) إن تمرده على الانضواء تحت لواء النموذج الأبوي/الذكوري، هو الذي كان وراء خروجه الفكري عن مختلف أصناف التنميطات، بل واتخاذه ذلك منحىً فكرياً في دراساته يهدف إلى كشفها وتبيان آثارها السلبية في بناء الهوية، ورعايته ضرباً من الذاتية المدققة والمشككة بعيداً عن القوالب الجاهزة، على طريقة ادورنو وكما قال ذلك بنفسه. انظر: تأملات في المنفى ١، المصدر المذكور، ص. ١٣٠.

(١٠٥) في هذا المجال لا يمكننا التفريق بين توجهات ادوارد سعيد في سيرته عن توجهات النسويات في سِيَرهنّ، خاصة في الغرب.

(١٠٦) المصدر السابق، ص. ٤١–٤٢.

(١٠٧) انظر: Explicitation/implicitation in, Dictionnaire d'analyse du discours, op.cit., p.257.

رؤية انزياحات جسد ادوارد عن تصوراته حوله. والأم المتعلقة بابنها، هي بدورها قد صبت هواجسها على جسد ابنها وأرادت نظمه كي لا يخرج عن توقعاتها: «من أمي أحسست بجسدي جسداً مثقلاً وإشكالياً إلى حد لا يُصدَق، أولاً بسبب معرفتها الحميمة به، لأنها الأقدر على إدراك طاقته على ارتكاب الشّر؛ وثانياً لأنها حرمت نفسها الحديث علناً عنه، فلم تقارب الموضوع إلا تلميحاً أو هي تستنطق أبي وأخوالي، فتتكلم عنه – أي جسدي – عبرهم، (...) وكان هذا هو الأكثر إرباكاً لي.»[١٠٨] غير أن الأب هو الذي بادر إلى إصلاح جسده، دون اعتراض من الأم «على أن أمي نادراً ما اعترضت على ذلك، بل أخذت تدور بجسدي بانتظام من طبيب إلى آخر. وإذ أستذكر وعيي لجسدي منذ سن الثامنة فصاعداً، أراه منحبساً في نظام صارم من التصحيحات المتكررة (...) وأدى معظمها إلى تفاقم نقمتي على ذاتي. ذلك أن «إدوارد» كان قد حلّ في كيان بشع مشوّه يشكو من كل العلل أو يكاد (...) أحيلت ثلاث علل عضال، فقدم لها علاجاته المزاجية المتميزة. ويكفي تعداد تلك العلل لتبيان مبلغ المراقبة شبه المجهرية والكثيفة وغير المبررة التي تعرّض لها بعض أعضاء جسدي.»[١٠٩]

هكذا يظهر هذا الخطاب السير ذاتي الهوية على مستويين: المستوى الشخصي ومستوى الموقع.[١١٠] بالنسبة إلى المستوى الشخصي، فإن الهوية النفسية الاجتماعية مزدوجة الأبعاد بين خارجية وداخلية. يحدد بُعدها الخارجي مجموعة من المواصفات التي تعين هوية ادوارد.[١١١] على هذا المستوى الخارجي يترك الكاتب لأقوال الأب والأم مساحة وصف جسده–بشكل مباشر أو غير مباشر كما فعلت أمه– كي يعبرا عن منظورهما إليه، وهو منظور يشير إلى خطر التشوه ووجوب التدخل لإصلاحه. وإدراج منظورهما في الخطاب السير ذاتي يعني تعاملاً مع فاعل جديد هو ادوارد الكاتب وليس ادوارد الطفل أو اليافع. بالمقابل فإن الهوية السردية الداخلية تتعلق بادوارد نفسه، وقد عبّر عنها عن طريق اتخاذه الكلام وطرق تدخله فيه. ذلك أنشأ صورة مزدوجة لادوارد: المتذمر والناقم على ذاته طفلاً، عبر استخدامه ضمير الغائب «ادوارد» الذي يشير إلى أن ذاتيته آنذاك قد تعرّضت لرقابة الأهل القاسية، وهو كان ضعيفاً لمواجهتها. ثم ادوارد المحلل والكاتب، الذي عبر وقوفه عند التفاصيل الدقيقة لعلله الجسدية يشير إلى مرحلة أخرى تناظر الأولى في كشف المستور وتجاوزه. هذه الاستراتيجيات السردية تقوم على الترابط بين الخصائص الخارجية والداخلية لهويته.

(١٠٨) المصدر السابق، ص. ٩١.

(١٠٩) المصدر السابق، ص. ٩٢-٩٣.

(١١٠) انظر: Dictionnaire d'analyse du discours, op.cit, pp. 299-300.

(١١١) ونقصد العمر، الجنس، الوضع الاجتماعي، مكانته التراتبية في العائلة وصفاته العاطفية.

أما الهوية الموقعية فيحددها موقع الفاعل الذي يحتله في الحقل السردي وعلاقته بمنظومة القيم التي تسري في هذا الحقل، سواء المحددة من قبل الأهل أم من قبله. هنا نتلمس بدقة التقابل والتناظر بين منظومتين للقيم، منظومة محافظة وضاغطة وأخرى تسعى إلى التحرر من الضغوطات والآثام. هذا الإنشاء السردي هو المعبِّر عن هويته الموقعية.

إن موضوع الجسد في علاقته بالأهل هو الموضوع الأثير للنساء عادة[١١٢] في سيرهن الذاتية[١١٣] في محاولتهن الكشف عن موقعهن داخل الخطاب البيولوجي/الثقافي/الاجتماعي. يكشف ادوارد سعيد في سيرته الذاتية مساراً مشابهاً يتعلق بموقع الهوية الذكورية على المستوى البيولوجي، الثقافي، الاجتماعي ورهاناته. وهذا ليس بالمستغرب من قبل ناقد عمل في دراساته على فكفكة آليات الهيمنة والسيطرة والقولبة. وهو في هذا يشير إلى قضية تحديدات الذكورة في الثقافة العربية في فترة زمنية محددة، ولدى فئة اجتماعية معينة. لقد عرض موضوعة الجسد بعلاقته بالأهل بأسلوب منهجي، يقدم الحجة تلو الحجة في شكل يدعم أحاسيسه المهانة من تطبيع جسده/ذكورته مع تصور مسبق عنه/عنها، وتصميم من قبل الأهل على إنجاح هذه العملية: «على أن أقسى النقد هو ما طاول وجهي ولساني وظهري وصدري ويديّ وبطني. لم أدرك حينها أني متعرض لهجوم معين، ولا اختبرت تلك الإصلاحات والقيود بوصفها حملات منظمة – وهو ما كانته فعلاً. بل افترضتها جميعاً مقوّمات عملية تهذيب لا بد أن يمر بها المرء كجزء من مرحلة النمو. فإذا النتيجة الصافية لتلك الإصلاحات تعمّق ارتباكي وخجلي من ذاتي (...) أصرّ أبي على أخذي إلى صانع حمالات ومشدات في نيويورك ليشتري لي نيراً أرتديه تحت قميصي.»[١١٤]

فلا عجب أن يستخدم الكاتب مصطلحات مرتبطة في أذهاننا بالاستعمار مثل «نير» وتكرارها، هو الذي تفوّق في دراساته المابعد كولونيالية التي فككت آليات الهيمنة الاستعمارية، والتي بيّنت أن النير يستبطنه المغلوب على أمره ويصير جزءاً منه: «توّج النير الأبيض (...) سنوات بذلها أبي من المحاولات لجعلي «أقف مستقيم القامة». «الكتفان إلى الخلف»، كان يقول (...) فتضيف أمي بالعربية: «لا تسترخ»، علماً أنها

(١١٢) هذا ما تؤكد عليه الباحثتان الفرنسيتان Béatrice Didier وEliane Lecarme المتخصصتان في الكتابة السير ذاتية للنساء.

(١١٣) في الغرب خصوصاً، حيث تتيح حرية التعبير التطرق إلى موضوعة الجسد.

(١١٤) المصدر السابق، ص. ٩٤. ثم أردف قائلاً: «وأكثر ما أحبطني في تلك التجربة هو أني، وقد بلغت الحادية والعشرين، لم أعترض على كون أبي قد خوّل نفسه أن يحزمني مثل طفل شقيّ ترمز قامته الملتوية إلى ماهية ذميمة تستحق عقاباً علمياً.»

ملتوية القامة مثلها مثل أمها (...) ترفقها بعبارة «حردبة بيت بدر»، وهي عبارة ليست موجهة إلى أحد بالتخصيص ولكنها تتقصد بالتأكيد إلقاء اللائمة على نسبي إن لم يكن عليها هي أيضاً (...) فقد ثابر أبي على مساعيه، وتضمنت تالياً عدداً من «التمرينات» (...) وغني عن القول مدى الإحراج الذي كان يسببه لي عندما نكون برفقة أناس آخرين (...) وهكذا ظللت أعاني «ظهر» لسنوات وسنوات، إلى أن ابتليت بنيري.»(١١٥) وما الحديث عن الطرق التي اعتمدها أهله لبناء ذكورته إلا استكمال لحديث الهوية، الذي بسطه في سيرته وصولاً إلى تصور آخر عنها. لعل ادوارد يحتج أكثر ما يحتج على خضوعه كرجل لسلطة رجل آخر، أي أبيه،(١١٦) يُفترض به أن يتماثل بها: «ولكني لن أستطيع أن أغفر له أن ذلك التنازع على جسدي، وفرضه الإصلاحات والعقوبات الجسدانية عليه، رسّخا لدي شعوراً عميقاً بالخوف العميم الذي قضيت معظم حياتي أحاول التغلب عليه. ما لبث خوف أهلي من جسدي الناقص والمعيب أخلاقياً أن انسحب على مظهري (...) ولما كنت أتمتع بصوت «سبرانو» لا بأس به وتجدني أمي المولعة بي «حلواً»، فقد شعرت باستنكار أبي لذلك بل جزعه من أن أكون «مخنثاً»، وهي كلمة قضّت مضجعي إلى أن بلغت العاشرة. ومن الأمور الغريبة في مراهقتي المبكرة تهجمه على «رخاوة» وجهي، وخصوصاً فمي (..) وأذكر وقفاتي المطولة أمام المرآة أرى إلى نفسي بقرف إلى أن جاوزت سني العشرين أمارس التمارين.»(١١٧) يلتقي خطاب ادوارد سعيد عن بناء هويته الذكورية الرافضة للبطركية(١١٨) التي تجلت في التعاضد بين مساعي الأب والأم، مع خطاب النسويات المناهض أيضاً للخضوع للنظام البطركي وتنميطاته.

وهو ينظر كمحلل راشد إلى بناء ذكورته حين كان طفلاً ويافعاً، فإنه ينظر بمنتهى الصراحة إلى هذه العملية، ذلك أنه أراد تبيان آليات تأهيل الذكورة والاختبارات التي مر بها كي يكرس في نظر أهله ذكراً جديراً بأهل متفانين في سبيل مستقبله. ولا ننسى في هذا الصدد ما ذكرناه سابقاً حول المؤسسات التي درس فيها والتي ساهمت أيضاً في عملية هذه النمذجة. هكذا عانى الطفل واليافع من صدمة صورة جسده في

(١١٥) المصدر السابق، ص. ٩٤-٩٥.

(١١٦) حين يزعزع الأب صورة الابن عن نفسه، فإنه يعيق بذلك تماثل الابن بالأب، ويهدد صورة الذكورة عند الابن.

(١١٧) المصدر السابق، ص. ٩٧.

(١١٨) يعتقد البعض أن البطركية نظام ذكوري فحسب، غير أننا نلاحظ دور الأنوثة الناشط فيه التي تبحث عن صورة مثال للذكورة فتمارس ضغطها لتحقيقها وإنتاجها. النساء هن اللواتي يتعهدن إنتاج النماذج البطركية، وهن اللواتي يقصين عناصر الأنوثة في الذكورة وعناصر الذكورة في الأنوثة، في محاولة لتحديد الحدود الفاصلة بينهما.

عيون أهله، جسد مشوه، فكان وقع هذه الصورة عليه جسيماً، إنه ثمن «الرجولة المتخيلة»(١١٩) عند الأهل: «هكذا تولَّدَ شرخ آخر في علاقتي بجسدي. وإذا ارتضيت الحكم الصادر علي، استبطنت النقد وازداد حرجي وانعدام ثقتي بهويتي الجسدانية. أصبحت يداي الإشكاليتان الميدان المميز لاهتمام أمي النقدي (...) إني لا أشبه آل سعيد (..) كانت يداي كبيرتين بنوع خاص (...) فإذا بهما في عين أمي تارة موضع إعجاب حد العبادة (...) وطوراً موضع إدانة شبه هستيرية («يداك هاتان أدوات قاتلة») أما مصدر اهتمام أبي بيدي فكان أظافري التي كنت أقضمها باستمرار»(١٢٠). فمكابداته هي مصدر رضى الأهل، لأنها تدل على تقربه من النموذج المرتجى للرجولة. لكن ادوارد سعيد، وكما ذكرنا، لم يستسلم بل أدت هذه الإجراءات القسرية التي هدفت إلى إخضاعه لتصور أهله المتخيل عن رجولته، إلى اعتماده تصوراً آخر لهويته الذكورية يقوم على الانزياحات عن الأنماط السائدة، مفككاً بذلك القوالب الجاهزة والنمطية الذكورية. فالخنوثة التي توجس منها الأب ما هي إلا تصور منمط عن الأنوثة والذكورة وافتراضات تشير إلى القيم الثقافية المهيمنة آنذاك. والخروج عن هذه الافتراضات يؤدي إلى المراقبة والعقاب والتمرين على التطبيع.

أردنا من هذا العرض تبيان أنه لم يكن لدينا من مفر في دراسة علاقته بأمه، من اعتبار هذه العلاقة ثلاثية الأضلاع، بحيث يستحيل فصل العلاقة بين الابن وأمه بشكل جذري عن علاقة الاثنين بالأب/الزوج. فعملية نقل القيم الثقافية والاجتماعية تتضافر فيها جهود الأب والأم.(١٢١) لكن ادوارد يميز بين دوريهما، كما رأينا، فعملية النقل من قبل الأم تمتاز بالاجتهاد، بمحاولة الخروج النسبي عن موروثاتها، بينما النقل الأبوي فإنه خاضع للوراثة. لذلك فإن خطاب هذه السيرة يفيض عن مجال الذات ليستدعي التمثلات الجماعية. فخطابها يرسم الحدود الجديدة للحياة الخاصة بعيداً عن استعراضية الحياة الحميمة، بل هو يبين آلاماً حقيقية وأسراراً مخجلة ووضعيات تميزية. ويبين خطابه العلاقة الجديدة بالقيم والمعايير، وخطابه العام بما هو سيرة

(١١٩) إنه عنوان دراسة جدية: الرجولة المتخيلة، الهوية الذكرية والثقافة في الشرق الأوسط الحديث، إعداد مي غصوب وإيما سنكلير ويب، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٢.

(١٢٠) المصدر السابق ص. ٩٨-٩٩.

(١٢١) كأن ادوارد سعيد في هذه السيرة يمارس مقولة فرويد حول قتل الأب. الأمر الذي ساعده إلى حد كبير في التخلص من معوقاته النفسية والفكرية. في كتابه تأملات حول المنفى ١، المصدر المذكور، يثير قضية الانفكاك عن التقاليد والنظام العائلي الذي أدى إلى بزوغ أفكار جديدة ساهمت في التغيير. يقول: «وقد علمنا نيتشه ألا نشعر بالارتياح للتقاليد وعلمنا فرويد أن نعد ألفة العائلة ذلك الوجه اللطيف المرسوم فوق غضبة قتل الآباء وغشيان المحارم. والثقافة الغربية الحديثة هي في جزء كبير منها نتاج المنفيين والمهاجرين واللاجئين.» ص. ١١٧.

منشورة، يبين العلاقة الوثيقة بين الخاص والعام، فحين يمتد القول الخاص إلى المجال العام فإن هذا الأخير تتغير طريقة عمله، حيث ينصاع إلى مبدأ آخر للتنظيم غير مبدأ الفصل التقليدي بين الخاص والعام. وبالتالي فإن الحدود بينهما يعاد تأليفها من جديد- إنه موقف نسوي بامتياز- ذلك للإشارة إلى النماذج التي ساهمت في تشكيل هويته، وأسباب انفصاله عنها.(١٢٢) فهل نرى هنا إشارة إلى الأسلوب المتأخر الذي تحدث عنه في المقدمة، أي تقربه الفكري من الأطروحات النسوية في خطابه عن نفسه،(١٢٣) كاشفاً بذلك تواصله الفكري مع التشكيلات الثقافية والمعرفية لعصره، ومقترباً من مكونه الأنثوي مع تقدمه في العمر ومعايشته لاقتراب الموت؟

هـ - أنا المذكر بين الأخوات وسطوة الأم

يقول ادوارد سعيد «تعلمت في مدارس للبنين، حيث كان المزاج والتوجه مفرط الذكورية. وأعتقد أن اللوم يقع، جزئياً، على البريطانيين. ولم تكن ثمة طالبات أو أستاذات في برينستون أو هارفرد (...) وبعد ذلك حاولت تثقيف نفسي (إلا أن الوقت قد تأخر) خلال السنوات القلائل الأخيرة عن تاريخ النساء وكتاباتهن والكتابة عنهن. إلا أنه من الحقيقي أن خبراتي، تلك التي غالباً ما أشعر معها بالألفة وأكتب عنها في معظم الأحيان، هي التي عرفها الرجال وقاموا بتشكيلها.»(١٢٤) تتناقض المؤسسات الذكورية التي نشأ فيها ونهل من أفكارها(١٢٥) مع المؤسسة العائلية التي عاش في كنفها. فعلى

---

(١٢٢) هكذا لاحظنا وفي مواقع عديدة في السيرة أن سيرته كانت مصدر أفكاره النقدية، فلم يفصل بين تاريخه وأفكاره- بين الخاص والعام- لذلك اتسم سرده السير ذاتي بحرارة نفتقدها في العديد من السير العربية. وهو يشير إلى هذه المسألة في كتابه: تأملات حول المنفى ١، المصدر المذكور حيث يقول: «كنت مشدوداً على الدوام إلى أولئك الذين علموا أنفسهم بأنفسهم بإصرار وعناد، والى مختلف صنوف الخروج الفكري. وما جذبني إلى كتّاب وفنانين مثل كونراد وفيكو، وادورنو، وسويفت، وأدونيس، وهوبكنز، وأورباخ، وغلين غولد، ممّن جعلوا أداة التعبير، سواء كانت الموسيقى أم الكلمات، مشحونة على نحو خارج على المألوف ومشغولة ومعتنى بها إلى أبعد الحدود، متسمة بأرفع درجات الوعي الذاتي، ما جذبني إليهم طيش زاوية الرؤية الخاصة بهم. وما أثر بي لديهم لم يكن حقيقة أنهم قد ابتدعوا ذواتهم بل إنهم وضعوا هذا المشروع عامدين وبحساسية يصعب إرضاؤها ضمن تاريخ عام كانوا قد حفروه». ص. ٣٧٥-٣٧٦.

(١٢٣) المصدر المذكور، ص. ١٩.

(١٢٤) مقابلة أجرتها جاكلين روز، في الحق يخاطب القوة، ادوارد سعيد وعمل الناقد، المحرر: بول بوفيه، ترجمة فاطمة نصر، إصدارات سطور، القاهرة، ٢٠٠١، ص. ٣٥.

(١٢٥) «يستدعي صديقي ادوارد سعيد النسوية بشكل روتيني، إلا أنه، فيما عدا قيامه بعمل تواز مشكوك فيه «بين النسوية» ومعاداة الكولونيالية، مثلما جاء في حديثه مع كاترين دافيد عام ١٩٧٧، فإنه يكبح أي اهتمام بها»، جياتري تشاكرا فوتري سبيفاك، العرق قبل العرقية: اختفاء الاميركي، في: الحق يخاطب القوة، المصدر المذكور، ص. ٨٦.

الرغم من أن عائلته، عائلة بطركية،[١٢٦] على ما يقول، إلا أن جوها أنثوي بامتياز. فالحضور الأنثوي الذي جسدته أمه طاغ، وهو ولدٌ وحيد بين أربع بنات. ترى هل قام ادوارد سعيد بنقلة في كتابة سيرته باتجاه معرفة الحضن الأنثوي الذي شكله، والأنوثة التي فيه؟ كيف كان خطابه عن أخواته؟ كيف صورهن وصور علاقته بهن؟

شكلت السيرة الذاتية لادوارد نوعاً من التنقيب عن ماضيه، المنسي، والمقموع والمرفوض، وإن بحدود. على أنه قَلَبَ حكايته المحسومة رأساً على عقب، راسماً لها خريطة جديدة، معيداً قراءتها في سياقات مختلفة، عبر التذكر والبحث والتأمل. إن حساسية ادوارد سعيد الشديدة تجاه مسألة القوة والسلطة[١٢٧]، جعلته حذراً في تناول علاقته بأخواته. لذلك وضع إطاراً لهذه العلاقة بهدف إظهار الحقائق التي تخفيها والقوى التي تتحكم بها. يقوم هذا الإطار على سطوة الأم وقوتها في التحكم بهم جميعاً، مما أخلّ موازين العلاقة ورجحها إلى أن تبقى أسيرة توجهات الأم. وهو بذلك لا يمارس النقد فقط على قيادة أمه العلاقة بين أولادها، بل يبني سرداً مضاداً يربط نفسه عضوياً بتاريخه النضالي الشخصي، وهو تاريخ البحث والمعرفة وتكوين هوية لا تنهض من «ذات صلدة». هكذا لا يتورع، في معرض وصف دور أمه في سياق العلاقات العائلية، عن استخدام مصطلحات تدل على القوة والسيطرة، مُصدراً أحكامه عليها. فليس ثمة انفصال بين حبه لها وتعلقه بها ونقدها. يقول: في المرحلة الابتدائية «نمت بيني وبين شقيقتَيّ الكبريين، روزي وجين، ببطء، بل بطريقة خفية، علاقة تنافسية سخَّرتها أمي بمهارة للتحكم والتلاعب بنا.»[١٢٨] ولم تتوان عن تحميلهم جميعاً مسؤولية خيبتها منهم: «أولادي خيبوا أملي جميعاً. كلهم بلا استثناء»(...) فقد ظلت أسباب خيبتها فينا، ومن ثم فيّ أنا سرها الدفين، وسلاحاً في ترسانتها تشهره للتلاعب بنا وإفقادنا التوازن وبذر الشقاق بيني وبين شقيقاتي وبيننا وبين سائر العالم (...) الآن، إذ أستعيد علاقتي الصريحة والعميقة بأمي، رغم فارق السن، أدرك أن تلك المراوحة النقدية قد لازمتها على الدوام.»[١٢٩]

يضع الكاتب بمواجهة خطاب القوة –خطاب أمه– خطاب العجز، أي عجزه عن

(١٢٦) ترتبط البطركية بالهيمنة ومراوغاتها. لكن وكما رأينا في السيرة، فإن الأم تشارك الأب في النفوذ والسلطة على الأبناء. لذلك وجب الانتباه إلى مراوغاتها.

(١٢٧) تشكل مسالة السلطة في فكر سعيد موضوعاً متكرراً يشبه الموتيف. وفي سيرته فإن هذا الموتيف يشكل وحدة بنائية متكررة سواء على المستوى السياسي (نقده للكونيالية ولاحتلال فلسطين) أو الثقافي/الاجتماعي(نقده لتربيته وسلوكيات والديه تجاهه).

(١٢٨) المصدر السابق، ص. ٨٧.

(١٢٩) المصدر السابق، ص. ٨٦–٨٧.

مواجهة قوة أمه، وعن تغيير الموقف والمعادلة بينهما حين كان صغيراً. مبيناً في هذا التقابل، التباين بين الطفل ادوارد والكاتب. فالطفل كان عاجزاً عن مواجهة الأم والأب،(١٣٠) لكن الكاتب يقابل عجز الطفل بخطاب فكفكة هذه القوة وتمويهاتها، وتبيان انعدام الثقة الذي خلفته، مُظهراً توظيف مهاراته المكتسبة ومعرفته كي يحلل آليات هذه القوة واستراتيجياتها. واللافت استخدامه مصطلحات الهيمنة والسيطرة التي نطلقها عادة على المؤسسات السياسية والقيادية القمعية من مثيل: التحكم، التلاعب، النقد، السلاح، الترسانة، إفقاد التوازن. فهو أراد الإشارة إلى تبعات اعتماد الأهل على القوة في إدارة العلاقات بين أفرادها. وأجده في هذا المنحى النقدي متوافقاً أيضاً مع الأطروحات النسوية، التي تربط المؤسسة العائلية بالمؤسسات المجتمعية الأخرى وتتوقف عند تقاطعاتهما، مقوضة خصائص هيمنتهما. ألم يقل ميشيل ليريس إنه في دفعنا الخاص إلى نهايته نصل إلى العام، وإنه في إبرازنا لأكبر قدر من الذاتية نصل إلى الموضوعية!

ثم يبدأ في إعطاء البينات تأكيداً لمنظوره عن دور أمه السلبي في إعاقة انفتاح العلاقة مع أخواته بدون حدود مرسومة لها. فهو يعمل كالانتربولوجي الذي يحشد البراهين الدالة. هكذا تظهر الأم في دور الرقيب والحسيب والمرجع الأول والأخير.(١٣١)

بعد أن قدّم أمه إلى صدر اللوحة premier plan لإبراز دورها الحاسم في تحديد العلاقة بين أبنائها، يأخذ مسافة منها كي يبدأ برسم صفاتها المركبة والمراوحة مستخدماً مصطلحات ذات مخزون تخيلي تؤكد على طاقة الأم العجيبة على جذب أولادها والهيمنة عليهم، وعلى عدم تكافؤ هذه الطاقة مع مقدرات أولادها «فهي تنم عن نزعة تملك شيطانية وتنم، في الوقت ذاته، عن منتهى الطواعية السمحة».(١٣٢) ثم ما يلبث أن يرفد مصطلحات (مناورة، أسطورية، سحر، شيطانية، طواعية)(١٣٣) بأخرى أقوى منها تؤكد على معنى السيطرة والاستلاب، مستخدماً استعارة المستعمر للإشارة

(١٣٠) يرافق مفهوم العجز طفولته، ويكرره في مواضع كثيرة. انظر على سبيل المثال ص. ٣٥٨.

(١٣١) يقول: «على أنني كنت دوماً أشتبه في أنها كانت تلعب على تلك الغرائز والنوازع وتستخدمها لبذر الشقاق بيننا بتشديدها على الفوارق وتضخيمها ونواقص واحدنا للآخر على نحو دراميّ، بحيث تشعرنا أنها وحدها مرجع كل منا وصديقه الصدوق وحبّه الأغلى. والمفارقة في الأمر أني ما أزال أصدق أنها كانت ذلك كله». المصدر المذكور، ص. ٩٠.

(١٣٢) المصدر السابق، ص. ٩٠.

(١٣٣) يستكشف ادوارد سعيد عبر استخدامه هذه الاستراتيجية النصية، النص الباطن، الموحى به، الذي يكشف الوجهين المتجاذبين للغة ذاتها في بناء خطاب الأم المتجاذب. هذا التصور عن أمه يتناقض ظاهراً مع البطاقة التعريفية التي قدمها عن أمه بداية. إذ يوحي ذلك ضمناً بأن الأم التي كانت موضوعاً صارت ذاتاً صلبة ونافذة وقوية. فتبدو لنا مراوغات النظام البطركي الذي ينتج أمهات مسيطرات.

إلى الآثار السلبية لقوتها، إذ «حرمتنا بذلك تكوين حيز مشترك في ما بيننا، مستبدلة إياه بعلاقات ثنائية معها، كمثل علاقة المستعمرات بالحاضرة الاستعمارية، وشكلتنا كمجرة تنفرد بالإحاطة بكامل أجرامها ومداراتها.»(١٣٤)

ويقفل أخيراً هذا الإطار على نفسه، في حركة دائرية ترتد على نفسها دون تقدم على المستوى النفسي والزمني: «ان علاقتي بشقيقتي الكبريين، جين وروزي، كانت في العادة شائكة وخصامية، وقد شعرت بأني أفقد تدريجياً الحميمية، بل الوفاق، اللذين كانا قائمين بيننا. ظلت أمي، إلى يوم وفاتها، ثنائية العلاقات، أي كانت تشجعنا على أن نتعامل واحدنا مع الآخر من خلالها هي...تخص برعايتها كل واحد منا على حدة. «لماذا لا تكون أكثر مثل روزي؟» قد تسألني، أو عكساً تقول: «لا تملك أي من شقيقاتك موهبتك الموسيقية». فإذا جين في نظرها أكثر مرحاً من روزي، وروزي أقوى عزيمة من جين، وادوارد يسيء التصرف عندما نكون معاً. هكذا عشنا في دنيا أساطير أمي، نؤدي الأدوار التي تعيّنها لنا.»(١٣٥)

صار الطفل مقصياً ومستبعداً بسبب عجزه وانعدام ثقته بنفسه أمام قوة الأم، غير قادر على بناء علاقة أخوية متينة قوامها المشاركة، كما يرغب ويتصور. وكما هي قناعته بأن التاريخ لا يوجد بمفرده، بل بالتقابل مع تاريخ آخر، فإنه يستخدم التوجه عينه، مقابلاً بين نفسه وأخواته. وهو أسلوب نبيل يخلو من السيطرة، لأنه يقوم على التوازي وإن كان المنطوق من عندياته، لكنه أسلوب درامي لما يكتنفه من عدم التكافؤ. يشكل نموذج ادوارد، في مقابل النموذج الزاهي لأختيه، المقموع والمتعثر والعاجز عن الاندماج، لكنه غير الصامت. فادوارد الكاتب، الذي يمسك بتلابيب طفولته للتعبير كتابة عن حكايته، يستوقفنا في كيفية نظره إلى أخواته وإلى خصوصيته العائلية. فنراه يتجه إلى داخل نفسه يتفحصها ويقلبها – كما هو شأن كاتب السيرة – داخل حدود مجاله المعاش والمتخيل والمتذكر في مقابلة معهن. وهذا هو الأسلوب نفسه الذي تبناه حين وصف علاقته بأمه (إطار، ثم مقابلة).

لذلك استخدم أسلوب المقابلة بين نموذجين: هو/هن، كطريقة للتعبير كاشفة حسياً ومادياً عن آثار القوة وطريقة استقباله لها. هن يمثلن نموذج الفتاة العاقلة، فها هي روزي الأصغر منه سناً قد «فرضت على الآخرين الاعتراف بها فتاة «عاقلة»(١٣٦) في المدرسة الإعدادية. وكذلك فعلت جين «وسرعان ما تحولت جين نفسها... من نسخة

(١٣٤) المصدر السابق، ص. ٩٣.
(١٣٥) المصدر السابق، ص. ٢١٨.
(١٣٦) المصدر السابق، ص. ٨٧.

مصغرة ومستتبعة لروزي إلى فتاة «عاقلة» هي الأخرى.[١٣٧] وهو في ذلك يركِّز الانتباه على خبرته وما يُحرِّك مشاعره: «وأما أنا فرحت أهيم على وجهي في أرجاء المدرسة حاملاً شعوراً متزايداً بالغم والتمرد والشرود والتوحد.»[١٣٨] يتسم نموذجهن بالانضباط والتكيف، وسرعة الإنجاز والتحقق. يقابل هذا التكيف السريع والانضواء تحت خانة العقل، نموذجه الذي «واصلت فيه انحداري في التعيير المستدام».[١٣٩] البنات مجتهدات ومحبات للدراسة والمذاكرة، وهو يؤجل المذاكرة لإعاقتهما عما يحبانه تشفّياً من إحباطه. في معرض آخر يعلي من نموذج أخواته، ويخفض تصوره عن نموذجه.[١٤٠] كما يعترف لجين بشجاعتها مقابل هشاشته «وحدها جين بدت قادرة على التماسك، فلازمت أبي، خلال الأشهر الثلاثة التي قضاها في المستشفى، مبدية شجاعة فائقة، أعترف ببساطة أني لم أكن أملك شجاعة تجاريها.»[١٤١] يعلن عن رغبته في التواصل مع شقيقاته، غير أن قوانين العائلة التي وضعها الأب والأم قد حكمت بالفصل «الجسماني القسري (...) علماً أن النظام الساري عليّ كان الأشد من حيث الوقع الجسماني والانضباط».[١٤٢] ويضاف إلى هذه الهوة الجسمانية الهوة العاطفية الناجمة عن هذا الفصل.

لم يعنِ دائماً هذا التقابل التنافر، بل كانت بين الإخوة وصلات حلوة من اللعب والمزاح طابعها «الاستمتاع» و«التفاعل المتبادل»، و«مزاحمة نادراً ما بلغت حد العداء.»[١٤٣] ومع ذلك فإن الكاتب يؤكد على شعوره «بانكماش متبادل» وأن «تلك الهوة الجسدانية قائمة بيننا إلى الآن، ولعلها اتسعت عبر السنين بسبب أمي»، فيحلّل سلوكه تجاه أخواته، بناء على مواقف أمه: «فبسبب من ذلك الحرم الضمني المفروض على أي اتصال جسداني بيننا، اتخذ خرقي لذلك الحرم شكلاً عدوانياً.»[١٤٤] لذلك «عظم كل هذا من إحساسنا بمكانة الجسد المميزة والإشكالية.»[١٤٥]

في وصف هذه العلاقات العائلية الحميمة فإنه يركز على مشاعره، وعلى دوره كمثقف بإخبار نفسه، وغيره بالحقيقة. لذلك يخترق الحواجز التي تفصل الخاص عن

(١٣٧) المصدر السابق، ص. ٨٨.
(١٣٨) المصدر السابق، ص. ٨٧.
(١٣٩) المصدر السابق، ص. ٨٨.
(١٤٠) المصدر السابق، ص. ١٨٥.
(١٤١) المصدر السابق، ص. ٣١٧.
(١٤٢) المصدر السابق، ص. ٨٨.
(١٤٣) المصدر السابق، ص. ٨٩.
(١٤٤) المصدر السابق، ص. ٨٩.
(١٤٥) المصدر السابق، ص. ٨٩.

العام، إلى حد ما. إنه مسار بعيد أن يكون مجرد استرجاع عقيم للماضي، بل هو يساعد على الإبحار في الحميمي، في علاقته الوثيقة بالثقافي/الاجتماعي. إذ نتبين المعايير المحافظة التي تفصل بين الجنسين، والتكتم الشديد على القضايا الجنسية.

في مقابل الطوق الأمومي، لف علاقته بأخواته طوق آخر ذكوري لا يقل قوة عن الأول – الطوقان متصلان يستمدان القوة من بعضهما البعض، يتفاعلان ويشكلان نظاماً هجيناً لا هو أبوي كلية ولا هو أمومي تماماً[١٤٦]. طالبه الأب القيام بدور الراعي والحامي للبنات، أي لعب الدور المطلوب والمرغوب من الذكورة في المجتمع الذكوري، غير أن ادوارد حاد عن هذا الدرب: «رحت أنا أتلبس تدريجياً دور الأخ ذي النوايا المريبة.»[١٤٧] ثم أنّبهُ لاحقاً على استهتاره في التماهي بهذا الدور الذكوري، خلال نزهة صيفية «لن أسمح لأحد بأن ينظر إلى شقيقتك بهذه الطريقة». ولاني وجدت قوله غير منطقي، فقد علقت قائلاً ان «لا ضرر من مجرد نظرة» (...) لكن ساورني حينها شعور أكيد أني لن أستطيع محاكاة حس التملك عند أبي (...) رجولية أبي المغالية، فانكفأت عنها مرتاعاً».[١٤٨] لقد نفر من القوة والسلطة الأبوية والأمومية، وفي رفضه هيمنتهما اضطربت علاقته بشقيقاته، خاصة وأنه وفقاً للنظام الذكوري التقليدي فإنه يُعطى للذكر امتيازات معنوية ومادية تضعه في موقع مميز عن البنات، وهذا ما لم يكن وضعه عليه: «قيدني أبي وأمي بقيد مزدوج إذ ظلا يلحان عليّ بالقول إني مسؤول عن شقيقاتي، بصفتي رجل العائلة، مع أن شقيقاتي الأربع كن مساويات لي في كافة المجالات. هكذا فرضا عليّ واجبات ذلك الموقع دون منحي أياً من امتيازاته. بل العكس هو الصحيح، إذ كنت أشعر بأن شقيقاتي حظين بعناية أكبر من التي أحظى بها.»[١٤٩] وفقاً لهذا التصور، فإن شقيقاته مميزات عنه من قبل الأم والأب، بهدف حمايتهن في مجتمع ذكوري، فكيف يكون المسؤول عنهن، هو المستبعد عن الامتيازات الذكورية؟ هذا التناقض الذي عاشه جعله عازفاً عن التماهي الكامل مع النموذج الذكوري التقليدي، ومع الدور المرسوم له، لكنه من ناحية أخرى أعاق عدم التماهي هذا، بناء علاقات متوازنة مع شقيقاته.[١٥٠]

انطلاقاً من ذلك، فإن مفهومه لنفسه ولشقيقاته مربوط بمفهوم الأم لهما، وبطرائق

(١٤٦) لقد ذكرنا سابقاً كيف أن ادوارد يذكر القارئ بأن أهله ابتكروا نظاماً لعيشهم خاصاً بهم كونهم بدون وطن، يعيشون كغرباء وأقليات، دون مرجعية مساندة.

(١٤٧) المصدر السابق، ص. ٨٨.

(١٤٨) المصدر السابق، ص. ٢٠٤.

(١٤٩) المصدر السابق، ص. ٣٣٤.

(١٥٠) المصدر السابق، ص. ٣٣٤.

تعبيرها غير المتكافئة، فلم يكن قادراً على تعيين حيز إيجابي لتجسيد حبه لهن وتعلقه بعائلته: «اقتضى الأمر سنوات بعد نهاية تعليمي رسمياً لكي أدرك مدى تسللها – قصداً أو سليقة؟ لن أدري أبداً – إلى شؤوننا الداخلية، نحن الشقيقات الأربع والشقيق، وبل مدى تدخلها أيضاً بين واحدنا والآخر. ولا أزال أنا وشقيقاتي نعاني آثار مهاراتها المرهوبة الجانب في هذا المجال، وقد أدت إلى نشوب حواجز شائكة بيننا، تغذت بالتأكيد من مصادر أخرى، ولكنها حواجز أقامتها هي أصلاً. يؤسفني أن بعض هذه الحواجز غير قابلة للإزالة(...) ولكنني أدرك الآن أيضاً أن شرنقتنا العائلية الغريبة في ذلك الزمان المنقضي لا تصلح نموذجاً لحيوات لاحقة، ولا العالم الذي عشنا فيه يصلح لها. وأظن أن أبي قد حدس ذلك عندما قرر، بكلفة باهظة، إتيان أمر غير مسبوق إطلاقاً، عندما أرسل أربعة منا للدراسة في الولايات المتحدة (...) وكلما أمعنت في التفكير في ذلك، ازددت اقتناعاً بأنه كان يعتقد أن لا أمل لي في أن أصير رجلاً إلا إذا صرمت علاقتي بالعائلة.»(١٥١)

يبدو ادوارد كما لو أنه لا يملك كلية حيزه العائلي، أي مكانته في هذا المكان الحميم، وسرده ذكرياته المؤلمة عن علاقته بأخواته ما هو إلا محاولة لإعادة تملك هذا الحيز. فهو يبحث عن موقع مكاني، وبمرارة يستنتج برود مشاعره حيال التعلق بالعائلة واختلافه عن أخواته على هذا الصعيد: «فوجئت بأني لا أكن إلا القليل مما ألمسه عند الآخرين من حب وإخلاص عضويين ومستداميين تجاه شقيقاتي وسائر أفراد العائلة الموسعة – وهي العائلة الموسعة التي يجلّها أبي بصفتها «عائلتنا نحن» وكذلك تجلُّها شقيقاتي، على ما أبلغنني.»(١٥٢) «حياتي العائلية التي ظلت صارمة وسافرة الشكلانية».(١٥٣)

فما حاوله في هذا المجال هو التأكيد على السياق(١٥٤) لفهم علاقته بأخواته، إذ لا يمكن فهمها دون معرفة حيثياتها الاجتماعية/الثقافية. فهو يعيد خلق الحيز العائلي ويؤوله مقدماً الظروف التي أحاطت به، إضافة إلى ظروف الكاتب الأخرى المتعلقة بعيشه بعيداً عن عائلته في أميركا حيث اكتسب ثقافة اجتماعية أخرى. ذلك أتاح له إيجاد صلات بين بعض أوجه هذه العلاقات الإشكالية، وإقامة الطباق بينها، وهي نقطة مهمة كما ذكرنا، في منظومته الفكرية، إذ حكمت فهمه للخطاب السياسي والفني كما

(١٥١) المصدر السابق، ص. ٣٥٧.
(١٥٢) المصدر السابق، ص. ٢٥٢.
(١٥٣) المصدر السابق، ص. ٢٥٣.
(١٥٤) إن فكرة السياق تحتل موقعاً مميزاً في نقد ادوارد سعيد الأدبي.

ذكرنا. فعيشه في ثقافتين ومناخين ووطنين قد ولّد لديه وعياً طباقياً ووعياً بالأبعاد التزامنية. فموقعه الجديد– خارج مكانه البدئي– أتاح له رؤية ذاته وأخواته في ضوء جديد ومختلف. ولعل الانتقال من النظام الأمومي إلى النظام الأبوي الذي كان عليه إجراؤه حين كان في مكانه الطفولي كي تتحدد هويته الذكورية، ومواجهته لصعوبات إتمامه، ومن ثم إتمامه لاحقاً في مكانه الآخر مع تجرعه طعم المنفى، لعله السبب في إظهاره صورة الشقاق العلائقي العائلي ورغبته في تركه على حاله، في حالة من العناد لانتهاك المحظور. ولا ننسى اهتمامه أيضاً بالضائع والمفقود والمُقتلَع والمُهمَّش أكثر من اهتمامه بالانتصار والتحقق، فهل لهذا السبب لم نرَ سوى الوجه الناقص في العلاقة؟ ترى هل يحقق هنا ما وجده في تحليل الأسلوب المتأخر في الكتابات المتأخرة لبعض الكتاب، مثل فرويد في «موسى والتوحيد» الذي وجد فيه «عملاً مركباً من عدد من النصوص، جملة من النوايا، سلسلة من الفترات الزمنية المختلفة، وكلها صعبة شخصياً بالنسبة إليه، على صعيد التصدي لها مع المرض، وصعود الاشتراكية القومية، وأشكال عدم اليقين السياسي التي أحاطت بحياته في فيينا، مصحوبة أحيانا بآثار متناقضة، بل وحتى باعثة على الاضطراب وعدم الاستقرار (...) يبدو «موسى والتوحيد» مؤلفاً من قبل فرويد لنفسه هو (..) فكل ما يحيط بالبحث يشي لا بالحل والمصالحة (...) بل بقدر أكبر من التعقيد مع نوع من الرغبة في ترك العناصر غير القابلة للتوفيق على حالها، عرضية، متشظية، وناقصة»؟[١٥٥]

٢ – هو/هن والحب

نادرة سير الرجال العرب الذاتية التي تتيح اكتشاف إلى أية درجة يشكل مسار الرجل الذاتي/الاجتماعي مساراً مختلفاً. ذلك لا يتحقق إلا في اكتساب الكاتب/الرجل الحرية التي تقوده لأن يكون نفسه، لا كما أريد له أن يكون، وأن يتجاوز الترسيمات الذكورية. العودة إلى الماضي، هي أيضاً عودة إلى الذات. ترتبط هذه العودة إلى الذات، بالعودات الأخرى، لكنها تبقى الأصعب من بينها. ولكي تتحقق يجب أن تنتصر السيرة الذاتية على عقبتين: تأكيد أهمية الطفولة بحد ذاتها، وكذلك الذكريات عنها، وأن يقبل الكاتب الحديث عن الجنس وعن جنوسته ووعيه بها. وهذا ما حققه ادوارد سعيد، إلى حد ما، خاصة وأن موضوع استفاقاته الجنسية قد أفرد لها مكاناً واسعاً، ليس بهدف الاحتفاء بها، إنما للتدليل على ما واجهته من قمع وتستّر من قبل النظام العائلي الصارم. واستعراض المفاصل الرئيسية، وإن بشكل مقتصد، لهذا القمع مهم كي نفهم

(١٥٥) انظر: ادوارد سعيد، فرويد وغير الأوروبيين، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٤، ص. ٤٠–٤٢.

حق الفهم ذكرياته الغرامية. فهو من ناحية، وجرياً على عادته، يركز على السياق، ومن ناحية أخرى على الترابطات. إذ يعمد من خلال هذا التجميع المتناسق من الذكريات التي تندمج وتتقارب في نقطة واحدة لتندفع نحوه وتصدم جسده، إلى الوقوف عند حيثيات الكبت الجنسي وآثاره في بناء علاقات غرامية. نقصد بذلك أنه لا يمكننا الوقوف على موقع الأنوثة عنده دون فهم موقع ذكورته، فمنها ينطلق إلى الآخر ومن ثم يرتد إلى ذاته، في رحلة معرفية نشطة، تؤدي إلى تحدي البديهيات والقيم المريبة وتغييرها.

عاش ادوارد سعيد خوفاً من خرق النظام العائلي المنضبط أخلاقياً والمقولب ثقافياً رغم أن «إغراءات القاهرة، الجسدية منها والمعنوية، تناديني من خلف أسوار ذلك الروتين الحياتي المبرمج بعناية والمدار بصرامة شديدة. فلم أخرج مرة مع فتاة».(١٥٦) بالمقابل بدأ «يستمد لذة سرية من ممارسة (أو قول) كل ما من شأنه مخالفة القواعد أو تجاوز الحدود التي يفرضها أهلي» ووجد ضالته في الكتب، حيث بدأ يستمتع باكتشاف البعد الايروسي عبر شخصياتها النسائية، حتى أنه يتحدث عن تجاربه مع «كاليتا» وتحوله إلى «مؤلف ملذاته».(١٥٧) وإذا أضفنا إلى ذلك التنازع على جسده لاحقاً، والنقد القاسي الذي تعرَّض له وانعدام ثقته بهويته الجسدانية، وكبته، وتشكيل موضوع الجنس أحد المحرمات التي لا يتوجب ذكرها، فإنه يتوجه مباشرة إلى القارئ كي يشاركه فهم وضعيته المتأرجحة والتي تتسم بعدم الوضوح من حيث «تذكيره» قسرياً، إن جاز التعبير، ومن ثم تحريم الجنس عليه، وهو أحد مكونات الذكورة «تصور أني عندما غادرت الولايات المتحدة عام ١٩٥١، وأنا في الخامسة عشرة من العمر، كنت ما أزال متبتلاً كلياً (...) ثم إن المدارس التي ارتدتها في مصر والولايات المتحدة إلى حين بلوغي السابعة عشرة والنصف كانت تُولدنُ كل شيء وتنزع عنه كل صفة جنسية. وينطبق الأمر ذاته على جامعة برينستون حيث درست إلى حين بلوغي الحادية والعشرين. كان الجنس ممنوعاً في كل مكان».(١٥٨) إذ جرى تخويفه من الجنس، وتطويعه للدخول في النظام المحافظ على مستوى رؤيته لنفسه وللمرأة، يقول له الأب: «يجب أن تتزوج امرأة، ما باس فمها إلا أمها».(١٥٩) في هذا الجو المتزمت أخلاقياً(١٦٠) الذي لا يتيح الحديث عن مواضيع فلسطين والخلافات العائلية والجنس التي «تقع في

(١٥٦) المصدر السابق، ص. ٥٤.
(١٥٧) المصدر السابق، ص. ٥٨-٦٢.
(١٥٨) المصدر السابق، ص. ١٠٠.
(١٥٩) المصدر السابق، ص. ١٠٣.
(١٦٠) المصدر السابق، ص. ١١١.

دائرة المحظور، يمنع عليّ إثارتها أو حتى الإشارة إليها بأيّ شكل من الأشكال»[١٦١]، فإنه لا يتيح أيضاً البوح للذكورة عن أبعادها الكاملة. فبين «التذكير» المفهومي وممارسة الذكورة يقف عائقاً القانون الرمزي الذي تمثله سلطة النظام الأبوي الذي يمنع المتعة ويقيد النوازع. أدى هذا المناخ الذي عاش فيه وتلك المنظومة الرقابية الصارمة إلى شعوره بالتعقد[١٦٢] في مراهقته، وإلى بدء تلمس ذاته الجوانية المختلفة عن ذاته المقولبة.[١٦٣] كما أدى ذلك بدوره إلى تعقد ذاته الساردة.

ضمن هذه المعادلة التي حاصرته بشروطها المجحفة، كيف باح بحبه، وكشف عن معشوقاته؟ وما هي استراتيجيات خطابه العشقي عن ذاته وعنهن؟ ووفق أية موسيقى داخلية وصف عشقه وعشقهن؟

لاحظنا أنه لم يسجل الحب إلا في الفصول الأخيرة من السيرة،[١٦٤] وكأن الرغبة في السرد لم تأتِ من تلقاء نفسها، وإنما بناء على التدرج الزمني في الذكريات الذي أفضى إلى تسجيل سياقات عيشه، وجهوده لإيجاد وصف لتوتراته. فهو مرة أخرى يحول الانتباه نحو السياق لكشف الشعور. ورغم أنه يقدم في هذا الجزء من السيرة بعض التفاصيل، إلا أن تحليل الحب ليس هو ما يريد أن يقدمه لنا. فهو أراد أن يقدم فهماً لعلاقاته الغرامية، كما أراد أن يعنى بهذه الخبرة عن كثب وبدقة، وفي ضوء فترة الخبرة النسبية في الوقت الحاضر (حاضر الكتابة). كما لو أن التذكر يتيح التجربة السابقة إتاحة مباشرة ذلك بسبب اندفاع التذكر إلى الإمام.

علاقتان يتوقف عندهما، واحدة في لبنان وأخرى في أميركا. عاش العلاقة الأولى بلغة الأم (عربية)، والثانية بلغة المنفى (أميركية)، فهل هي صدفة إخراجه هاتين العلاقتين؟ ألا تشيران إلى هويته المركبة ببعديها العربي والأميركي؟

أ – الغرام العربي:

جرياً على أسلوبه في كتابة مذكراته والتي تفرد للتداعيات مكاناً، فإنه ذكر في نهاية الفصل السابع علاقته بإيفا العماد بشكل مقتضب، وأرجأ التفصيل إلى الفصل العاشر ما قبل الأخير، والأمر الذي استوقفنا أن ما بينهما سرد يركز على علاقته بأمه وتأثير هذه العلاقة على علاقاته اللاحقة بالنساء: «على أن تلك الآصال خلقت اتحاداً لا

(١٦١) المصدر السابق، ص، ١٦٩.
(١٦٢) المصدر السابق، ص. ٢٠٨.
(١٦٣) المصدر السابق، ص. ٢٠٩.
(١٦٤) ينقسم الكتاب إلى أحد عشر فصلاً، ترى هل أراد من حذف الفصل الثاني عشر الإشارة إلى أنه يعني اكتمال دورة الحياة أي الموت؟

ينفصم بيننا، سوف تكون له، إجمالاً، نتائج مدمرة على حياتي اللاحقة رجلاً يسعى إلى إقامة علاقات حب نامية وناضجة ومتواصلة مع نساء أخريات. ليست المسألة أن أمي قد اغتصبت موقعاً في حياتي لا حق لها فيه، وإنما المسألة أنها نجحت في أن تدخل حياتي وأن تبقى فيها إلى آخر أيامها، بل إني أشعر، معظم الأحيان، أنها بقيت فيها بعد ذلك.»[١٦٥] وإذا انطلقنا من هذا التحديد لن يكون مستغرباً بعد ذلك، التقاطع السردي بين وصف الحبيبة ووصف ردات فعل الأم حيال علاقة ابنها بمحبوبته. فهو يفرد سبع صفحات لهذه العلاقة،[١٦٦] وقد اخترقتها سبعة تداخلات من قبل أمه. **أولاً**: معرفة الأم بالعلاقة وموقفها الحيادي بداية منها.»[١٦٧] **ثانياً**: تهديد الأم واستخدام الكاتب الأسلوب المباشر في نقل التهديد. إذ بدا لها أن إيفا تخطّت بعض حدود التصرّف اللائق والحشمة: «ما الذي يظنه والداها من قضائها معظم وقتها مع شباب من أمثالك؟ ألا يعلمون أنها تفرّط في فرص عثورها على عريس؟».[١٦٨] **ثالثاً**: تصديها المباشر لرغبة ابنها الغرامية، بعد عودته من قضاء نهار جميل برفقة إيفا وإعلان الحب بينهما. فمقابل إشهاره الحب، واجهته أمه بضرورة كتمه. هنا أيضاً نقل الكاتب خطاب أمه المباشر في تقاطعه مع خطابه غير المباشر عنها، الذي يعلق على آرائها التي تشي بأحكامها الزاجرة للحب خارج إطار الزواج. تفريق أرادت منه استرداد مكانتها المهددة «وأظن أنك قبّلتها أيضاً؟» سألت، وإذا بإثارة الحب الأول تتحولّ شعوراً بالذنب والانزعاج (...) وبغضب رددت على سؤالها بأن الأمر لا يعنيها، وأنا أحاول تجاهل شعور ملحّ بأنه يعنيها بمعنى ما. انفلت زنبرك الالتباس عند أمي. فحبها لي يعني أنها تعتبر أي ارتباط آخر انتقاصاً من سيطرتها عليّ. ومع ذلك، فإنها تقليدية جداً بحيث تعتقد أن الناس يجب أن يتزوجوا وجوباً، رغم اشمئزازها من الجنس».[١٦٩] هكذا نرى كيف أن وظيفة الانتقال بين الأسلوبين هي التأثير والتحكم.[١٧٠] **رابعاً**: محاولة إيفا الحصول على موافقة أمه للزواج منها. فبمجرد ذهاب إيفا إليها فذلك يدل على أنها أدركت أن أمه هي المرجع الصالح في الموضوع. وهنا أجادت الأم في إقناع إيفا بالعدول عن فكرتها مرجعة السبب إلى تردد ابنها، وعدم نضجه.[١٧١] وهنا أيضاً استخدم الكاتب الأسلوب

---

(١٦٥) المصدر السابق، ص. ٢٧٥.

(١٦٦) المصدر السابق، ص. ٣٠٩-٣١٥.

(١٦٧) المصدر المذكور، ص. ٣١٠.

(١٦٨) المصدر المذكور، ص. ٣١٠.

(١٦٩) المصدر السابق، ص. ٣١٢.

(١٧٠) Philippe Lejeune, Je est un autre, L'autobiographie, de la literature aux medias, Seuil, Paris 1980, p.19.

(١٧١) المصدر السابق، ص. ٣١٤.

المباشر في نقل أقوال الأم، إضافة إلى الأسلوب غير المباشر الحر المنقول عن لسان الأم والأخوات وإيفا نفسها، ذلك للدلالة على أنها حاضرة بقوة في خطابه التذكري كمرجع يرى منه ماضيه. تستخدم الأم صيغة الغائب في الحديث عن ابنها، كأنما الكاتب لا يكتفي بنقل تفاصيل ذاكرته فحسب، بل ينقل أيضاً تفاصيل ذاكرة أمه عنه، ذلك للتأكيد على صدمته من موقف أمه وليس على الحدث بذاته ولتحميلها وحدها مسؤولية تبعاته: «فكأن ابنها ثابت في جردة من الرذائل والفضائل لا تحول ولا تزول أبداً، هي مؤرخها الأول ومرجعها الثقة».[١٧٢] مظهراً بذلك التنافر بين عواطفه التي تهدد قيم الأم اليقينية، وبلاغتها التي تحدد الخير من الشر. **خامساً**: ساهمت الأم في تغيير منظور ابنها إلى العلاقة مع إيفا من الإيجاب إلى السلب، إذ ارتبط حبه لإيفا بمعاني الخروج على سطوتها: «كان إنجاز أمي غير المعلن أنها أعادتني من جديد إلى مدارها، وسمحت لي بأن أنعم بحبها».[١٧٣] **سادساً**: تدخل غير مباشر للأم، خلّف وراءه بصمة لا يمكن طمسها، فتركت أثراً يقود إليها ويشي بها: «والحال أن تحذيرات أمي لإيفا شكّلت دعماً ضمنياً لي كي أقيم علاقات غير مسؤولة لا تنطوي على جدّية الزواج المروّعة ولكنها تسمح، في الآن ذاته، لعلاقتها هي بي أن تظل العلاقة الغالبة»،[١٧٤] إذ قننت الأم عواطف ابنها وأخضعتها لنموذج عاطفي غير مسؤول وغير جدي، مقابل نموذج حب الأم الجدي. وهنا نكرر أنه لا يهمنا صحة رأي الكاتب أو خطؤه، فما يهمنا هو كيف قدم الكاتب نفسه في أول تجربة غرامية له، عبر رؤية أمه له ولهذه التجربة. **سابعاً**: تنبئ الأم ابنها بخطبة إيفا إلى ابن عمها، كأنها بذلك تضع خاتمة للحكاية. وكأن لقصة حبه لإيفا راويان، هو وأمه، يتناوبان على السرد. راويان تتعارض مواقفهما من هذه العلاقة الغرامية. فحين اتسمت تدخلات الأم بالسلب الهادف إلى استرداد الابن إلى محورها، فإن الابن عاش أول تجربة حب بتقطع يتناقض واتساق موقف الأم الثابت منها، منذ البداية. هكذا كان السياق السردي الذي موضع فيه أول حب له متقطعاً بتداخلات الأم، كما لاحظنا، فبدا هذا التقطيع كما لو أنه الحافز على السرد والتذكر.

لكن حين تكون الأم في الداخل، داخل الذات وداخل السرد، عندها كيف يرى الكاتب حبيبته؟ وكيف يروي حبه الأول؟

ارتبطت الكتابة عن إيفا بالخوف والشعور بالذنب والمنع والإحباط، إذ رزحت هذه العلاقة تحت وطأة التابو: «أن أكون على مقربة منها دونما تماس جسدي أو حتى بوح

(١٧٢) المصدر المذكور، ص. ٣١٤.
(١٧٣) المصدر المذكور، ص. ٣١٤.
(١٧٤) المصدر المذكور، ص. ٣١٤.

كلامي بيننا، كان أشبه بلذة محرمة».[١٧٥] وعانت هذه العلاقة من العوائق التي نصبتها الأم، وفقاً لتعليلات الكاتب. وانتهت بوقوف ادوارد على عتبة الخرق دون تجاوزها، مستنتجاً فشله في إدراك حب إيفا الحقيقي له «أرتني أمي نبذة في الأهرام، اليومية المصرية، تعلن خطبة إيفا إلى ابن عمها. فأدركت مفاجأً أن إيفا لعلها سمعت بأني أنا أيضاً على علاقة بإحداهن وأخطط للزواج منها - وهذا ما حصل خلال الأسبوع ذاته الذي علمت فيه بخطوبة إيفا. ولكن حقيقة الأمر أن زواجي الأول كان قصيراً وبائساً، وهو ما عمَّق من شعوري المحبط بأني لا أستحق إيفا، التي لم ألتقها مجدداً خلال السنوات الأربعين التي تلت.»[١٧٦] ارتبطت الكتابة عن إيفا بالإرجاء، وبالغياب، أي ببروز مسافة زمنية ومكانية ونفسية بين الاثنين: مسافة تحمل دلالات ثقافية/اجتماعية تتمثل في تجاوزها سنه بسبع سنوات «فلا شك أن سن إيفا، ونمط حياتها المتبطل بعض الشيء، ومذهبها (روم أرثوذكس)، وفرانكفونيتها، قد أفزعت أمي».[١٧٧] ومسافة مكانية، تتمثل بعيشه في أميركا، مما حدد فرص لقاءاتهما في إجازات الصيف فقط في ضهور الشوير.[١٧٨] إضافة إلى مسافة نفسية بين الاثنين تعود إلى مدى نضجه وتحمله مسؤولية العلاقة «دامت قصة حبي لإيفا سنتين إضافيتين، كنت أرفض خلالهما، بطريقة طفولية الاعتراف بأن الزواج هو عندها المآل المنطقي لعلاقتنا».[١٧٩]

لقد فرض بحكايته الغرامية صورة لقدر غير عادل، قدر لا يسد فجوة إلا ليفتح أخرى، ولا يتظاهر بالعطاء إلا من أجل أن يحرم. لكن مقابل مشاعر المنع والتابو والإحباط، عيّن الكاتب مشاعر الحب التي جمعت الحبيبين، باستخدامه ضمير الجمع «صيفياتنا» «قصة حبنا» «انجذبنا» «نجلس» «نتشارك» «نتبادل» «مستقبلنا» «بيننا» «صداقتنا» «نستأنف» «علاقتنا»، الخ. وكان من معالم هذا الحب «النمو البطيء»، والرفقة المستديمة «لم أقدم على شيء آخر يمنع أو يعرقل تركيزي على مشاهدتها ومرافقتها خلال معظم ساعات النهار.»[١٨٠] وكذلك، الانجذاب اللاشعوري الذي أفضى إلى التقارب بينهما «نجلس واحدنا قرب الآخر، ونتشارك في ألعاب الطرنيب..ونتبادل الأسرار الحميمة الصغيرة.»[١٨١] كما أفضى إلى ازدياد وتيرة هذا الانجذاب مع الوقت

(١٧٥) المصدر السابق، ص. ٣١٠.
(١٧٦) المصدر المذكور، ص. ٣١٥.
(١٧٧) المصدر المذكور، ص. ٣١٠
(١٧٨) المصدر المذكور، ص. ٣٠٩.
(١٧٩) المصدر السابق، ص. ٣١٢.
(١٨٠) المصدر السابق، ص. ٣٠٩.
(١٨١) المصدر السابق، ص. ٣٠٩.

«على امتداد ثلاث صيفيات أو أربع»[١٨٢] وتضاعف رغبته في التقرب منها.[١٨٣] ذلك جعل فراقه عنها لمدة تسعة أشهر في السنة مجرد وقت لا وطأة له، «فقد كنا نستأنف علاقتنا في الضهور وكأننا التقينا البارحة».[١٨٤] كما كانا يتراسلان، فمدته رسائلها بالشوق الذي يتجاوز المسافات.[١٨٥] من الانجذاب يعبر إلى الانسجام «لم تكن مثقفة، غير أنها تنم عن صبر واهتمام رائعين وهي تصغي إلى أحاديثي عن قراءاتي واكتشفاتي»،[١٨٦] ثم يصل إلى الألفة بينهما، التي تبعث على الطمأنينة «صارت إيفا محاوري الجديد»[١٨٧] بديلاً عن أمه.

لكن هذا الحب المُطوق ما لبثت تعبيراته العاطفية أن انفجرت، خلال رحلة صيفية جمعتهما مع الأصدقاء، إلى أحد شواطئ بيروت، فانشكف الحب طليقاً بينهما وبمبادرة منه.[١٨٨] فرسم الكاتب إطار تفجر الحب وإعلانه، إطار يحده المدى الأزرق المفتوح، ويسوده مناخ الاسترخاء، مستحضراً العاشق/الكاتب بدقة الموقف الغائب، ملحاً في خطابه على جو الإثارة، خاصة وأن إيفا كانت في ثوب السباحة الذي يظهر مفاتنها «بدت إيفا أكثر إثارة للرغبة من أي وقت آخر. لها بشرة سمراء ملساء، وكتفان تامتا التكوير، وساقان مسمورتان. ومع أن وجهها ليس جميلاً بالمقاييس التقليدية، فقد كان ينم عن لهفة لا تقاوم. تحت صخرة داخلة في البحر، تعانقنا لأول مرة. فجّر العناق كل عواطفي المكبوتة، فأعلنا الحب واحدنا للآخر، وعلى طريقة رواة حلّ عليهم الإلهام فجأة، أخذنا نعيد رواية قصة سنوات البعاد والتوق غير المباح. صدمت لقوة شغفي.»[١٨٩] في إثارة هذا المشهد يصل الراوي إلى ذروة التعبير عن المشاعر، حيث إن الكتابة التي انطلقت من التلعثم والتعثر والاستحالة، تصل إلى التسمية والتعيين بطلاقة الرواة الملهمين الذين يكشفون المعاني المستترة بقدر ما يقومون بتكرار البوح «وفي المساء، التقينا سائر أفراد المجموعة في سيتي سينما، حيث جلسنا جنباً إلى جنب نتهامس مكررين إعلان الحب مرة بعد مرة.»[١٩٠] وحين انكشف الحب صار من الصعب على العاشق المغادرة إلى أميركا في اليوم التالي. أمام هذه العقبة، حاول

(١٨٢) المصدر السابق، ص. ٣١٠.
(١٨٣) المصدر السابق، ص. ٣١٠.
(١٨٤) المصدر المذكور، ص. ٣١٠.
(١٨٥) المصدر السابق، ص. ٣١٠.
(١٨٦) المصدر السابق، ص. ٣١٣.
(١٨٧) المصدر السابق، ص. ٣١٣.
(١٨٨) المصدر المذكور، ص. ٣١١.
(١٨٩) المصدر السابق، ص. ٣١١.
(١٩٠) المصدر السابق، ص. ٣١١.

احتواء شروط استحالة بقائه بإمكان المرض، بحيث إنه واجه المستحيل بممكنات جسده.[١٩١]

بعد تخرجه من برنستون أمضى عاماً في القاهرة (١٩٥٧-١٩٥٨) قبل ذهابه إلى هارفرد للدراسات العليا. كانت إيفا تسكن آنذاك عند أختها في الإسكندرية، فصار يتردد عليها بحجة متابعة أعمال أبيه هناك «ظلت علاقتنا الجسدية متقدة ولكنها غير متحققة لأن كلانا يفكر أننا إذا اجتزنا ذلك الخط الأحمر صرنا زوجاً وزوجة بالمعنى الكامل للكلمة. فكانت إيفا تردعني - بدافع حساسيتها وحبها المفرطين، على ما اعتقدت - قائلة إنها لا تريدني أن أتحمل المسؤولية.»[١٩٢] هكذا نتبين أن ميزان العلاقة بيد إيفا التي أدركت الحدود التي عليها الوقوف عندها، فهي تريد الزواج، وهي «متحدرة من أسرة عربية محافظة، متحفظة ومستقيمة (...) ومع أني لم أدرك ذلك في حينه، فقد كانت تنتظر الزواج.»[١٩٣] وهو غير مستعد للزواج منها «ورغم إدراكي أني منجذب إليها ومتعلق بها أكثر من أية امرأة عرفتها من قبل، فإنه لم يكن لمستقبلنا معاً من مكان في تأملاتي أو أحلام يقظتي.»[١٩٤] فهل كان السبب في عدم نضجه وتردده كما قالت أمه؟ أم بسبب خضوعه للنظام الأبوي الذي اعترض على فارق العمر؟ أو لسلطة النظام الأمومي الذي حاول استبقاء الابن في دائرة جذبه؟ أو لأن صورة الزواج لم تكن ذات جاذبية كما ورثها من تصورات الأهل عنه «أمي تصور الزواج نشاطاً هامداً وغير مبهج أساساً، يفترض به أن يدوم إلى الأبد»؟ رغم تأكيده صفات إيفا المميزة، ورقّة وصفه لها، إلا أنه تباعدت لقاءاتهما، «وقد تقلصت سعادتي بمقدار اكتشافي مبلغ الضرر الذي سوف تتعرض له حياة إيفا إذا هي لم تتزوج.»[١٩٥]

ثمة مسافة بين المؤلف وخطابه، قد زالت حين وصف تفجر مشاعره، لكنها اتسعت حين روى التباعد، حيث انتقلنا من إيقاع دافق إلى آخر بارد، لدرجة إحساسي كقارئة، أنه في الحالة الأولى توجه إلى نفسه، وفي الحالة الثانية توجه إلى القارئ. كما لو أنه بذلك قد تخلى عن التحمل المباشر للكلام. وما إدراجه لأقوال أمه ولأقوال أبيه وإيفا، إلا دلالة إضافية، على أنه يبدو مثل ممثل يلعب على التوالي أدوار عدة، فيغير كل مرة هيئته ولهجته وكلامه. وعند قراءة كل سرد بمفرده، يمكن للقارئ أن تلتبس الأمور عنده، فيظن ولو لبرهة، أن الأشخاص قائمين بذاتهم وأنهم يتمتعون بوجود مستقل،

(١٩١) المصدر السابق، ص. ٣١٢.
(١٩٢) المصدر السابق، ص. ٣١٣.
(١٩٣) المصدر المذكور، ص. ٣٠٩.
(١٩٤) المصدر السابق، ص. ٣١٠.
(١٩٥) المصدر السابق، ص. ٣١٣.

وأن لا دخل له في ما يفعلون وما يقولون. فينسى القارئ أن المتكلم الفعلي هو ادوارد الكاتب الذي يكشف وجه العاشق الغض.

ب – الغرام الاميركي

ربما نتمكن من فهم موقف ادوارد من الحب الأول على ضوء علاقته الثانية، خلال المرحلة الأخير من دراسته في برنستون. فهو حين بدأ عرض ملابسات قصة حبه للفتاة الاميركية، فإنه يسوق شيئاً من اكتشافاته الذاتية الشائكة كائن غير ناضج ومتردد ومتخبط ومتعدد الشخصيات «أنا العربي وعازف الموسيقى والمثقف الشاب والهامشي المتوحد والطالب المجتهد والمشاغب سياسياً.»(١٩٦) إلى الفتاة الأميركية يعود الفضل في هذا الكشف، فهو عيّنها مرجعاً مرآوياً اعتمد عليه للتعرف المعمق إلى ذاته. ويلفتنا أن ما سطره لنفسه من سلوكات عرضها على أنها متنافرة، قد تجلت في أميركا، ومن خلال العلاقة بفتاة أميركية. وهو بالمقابل، حين عرض قصته مع إيفا لم يُرد أي تفاصيل تتعلق بهويته، مما ترك الباب مفتوحاً أمام القارئ لتأويل ذلك على أن عرضه قصته مع ايفا كان كاشفاً لسطوة أمه على سلوكاته، وعرض قصته مع الفتاة الأميركية كان هادفاً التصريح عن دورها الكاشف لسطوة ظروف دراسته وعيشه في أميركا. ولا نستبعد أن المكوث بين أهله وذويه – حيث عاش العلاقة – لم يدفعه للتطلع إلى هويته، ناهيك أن يعلن عن إعادة نظره بتشكله الثقافي. بينما تنبه إلى التقابل في هويته بين مكوناتها المختلفة، بعيداً عن أهله/مكانه الطفولي. لذلك فتح هويته على جوانبها الفنية والثقافية والسياسية للنظر فيها في المكان الآخر/المنفى. وكأنه في أميركا، وفي حضرة المعشوقة الأميركية، يتنبه إلى معارضته الموروثات التربوية وظروف تنشئته العائلية، وإلى كونه مقيداً أيضاً في حياته الأميركية.

إنه عاش في الحالتين تجاذبات متعددة: أولها، التجاذب بين العلاقتين والحياتين والمكانين. وثانيها، التجاذب بين الرغبة وعدم تحققها، بين الرغبة ومبدأ الواقع الذي يفرض شروطه. وثالثها، تجاذب بين الطاقة الحرة والطاقة المربوطة، يقول «شعرت أني أريد أن أكون معها على الدوام، وهي رغبة تغذّت دائماً من استحالة تحقيق ذلك. فقوانين برنستون، وبعد المسافة بينها وبين برين ماور، والبرامج الدراسية المعقدة، حدّت كثيراً من وتيرة لقاءاتنا. ولكن ذلك الزمن كان زمن علاقتي النامية بإيفا، وإن ظلت مقتصرة على صيفيات ضهور الشوير. وهكذا كنت في سنتي الأخيرة في برنستون أطارد حبّي في برين ماور – مرة كل ستة أسابيع أو يكاد، وبنتائج أشد ما تكون

(١٩٦) المصدر السابق، ص. ٣٤٣.

إحباطاً – بما هي جزء من حياتي الأميركية، بمعنى ما، فيما إيفا تشكل جزءاً عضوياً من حياتي الشرق أوسطية. ظلّت العلاقتان المتعاكستان والمبرمجتان بانتظام خبيث علاقتين عفيفتين وغير متحققتين. وكما قالت لي صديقة قديمة لها بعد ذلك بعشر سنوات، كانت تلك الأميركية المدهشة شخصية من طراز الإلهة ديانا (...) غاية في الجاذبية وفي الصدّ معاً.»(١٩٧) رغم فترات سكون العواطف والرغبات، غير القليلة، فإنه لجّ في حراكها وأبى أن ينصرف عنها، فعاش هذه التجاذبات على مستوييها الداخلي والخارجي. أما «الخبث»، فإنه يتأتى من المجاورة الرهيفة بينهما، كما لو أن هاتين العلاقتين تجسدان تعالقاً كامناً بينهما.

لقد فشلت علاقته بإيفا في أواخر الخمسينيات، وواصل علاقته بتلك الفتاة الأميركية. ثم تزوج من امرأة أخرى– لا يعلن من هي– سرعان ما آل زواجه منها إلى الفشل بدوره، حينذاك عاد إلى صديقته الاميركية. وهكذا فإن علاقته بالفتاة الأميركية تعرضت لتجاذبات خارجة عن نطاق هذه العلاقة. غير أنها وقعت هي نفسها في تجاذبات أخرى داخلية، تعود إلى نوعية العلاقة بذاتها وطبائع هذه الفتاة وسلوكها الدفاعي. فهو حين شبَّه نموذجها بنموذج الإلهة ديانا «غاية في الجاذبية وفي الصد معاً»(١٩٨)، وإن أورد هذا التوصيف على أنه لغيره، فإن تبنيه من قبله يدل إلى توافقه وهذا التوصيف. فإنه رفعها إلى مصاف الآلهة، لكنها الآلهة التي تمثل الغواية والإعراض. وهنا لا يسعنا إلا أن نتوقف عند الصفات التي أطلقها عليها، وهي مجتمعة تزيد تعقيداً من ماهية هذه الفتاة، فهي عنوان الإثارة والصد والتلاعب، هي «المرأة الأميركية الملغزة، الولهانة إلى حد مدهش والتي تزداد مراوغة في الوقت ذاته».(١٩٩) وهي زعيمة طلابية «تنتمي إلى أسرة من الوجهاء الأرستقراطيين تكتسح جاذبيتها وسحر شخصيتها كل تحفظ قد يساورك تجاه جمالها المتواضع وغير المألوف. فهي طويلة جداً لكنها تتهادى بأناقة مدهشة.»(٢٠٠) كما لو أنه في إدراجه هذه الصفات المتناحرة، أراد إظهار شغفه بها وما جرّ على نفسه من متاعب جمة. متاعب يحار المرء في توصيفها، إذ يتمازج فيها الايروسي في تفتّحه وكبته، والعلاقة الحرة بالعلاقة المقيدة: «سكنّا معاً وكنا عشيقين فعليين قرابة سنتين من الزمن بعد اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة من علاقة متقطعة ممسوسة، إن لم أقل مشبعة، بالرغبة الجنسية

(١٩٧) المصدر السابق، ص. ٣٤٤.
(١٩٨) المصدر السابق، ص. ٣٤٤.
(١٩٩) المصدر السابق، ص. ٣٤٤.
(٢٠٠) المصدر السابق، ص. ٣٤٣.

المتصاعدة باستمرار والمحبطة باستمرار على أعجب وجه.»(٢٠١)

لقد كان عنوان هذه العلاقة المعقدة المراوحة بين الوصل وانقطاعه من قبل الطرفين، مع أن الكاتب يركز على مراوحتها هي: «وذات مرة (...) أسرَّت لي بصعوبات تلاقيها في علاقة لها مع شخص آخر، فآلمني الخبر وأربكني (...) وفي منتصف العام، استأنفنا علاقتنا من جديد. ثم غادرت إلى نيويورك للعمل.»(٢٠٢) كما لو أن مراوحته لا ينظر إليها بعين المراوحة، بل بعين من لم يرَ سوى معارضته لمراوحتها هي، التي وجهت رغبته وقيدتها.

لكن ما هي مبادئ العشق بينهما؟ إنها الوصال الجسدي الايروسي أساساً «يصعب عليّ وصف قوة جاذبيتها، ورومنسية جسدها الذي حرمته جنسياً لفترة طويلة، واللذة الغامرة للحميمية معها، وعجزي عن توقع متى ترغب بي ومتى تصدّ، والفرح الطافح للقياها بعد غياب. وهذا ما قيدني بها على امتداد سنوات عديدة.»(٢٠٣) وهو العشق المبني على الشوق الذي لا راحة منه «أحياناً، كانت تمثل بالنسبة إلي المرأة الأميركية المثالية التي لا أستطيع إليها وصولاً، لكنها، مع ذلك، تأسرني مفتوناً عند عتبة الوصل بها.»(٢٠٤) لكن مبدأ الانسجام الذي يقوم عليه العشق لم يكن تاماً، بل اخترقه اختلاف في الطباع والسلوك.(٢٠٥) كما ساد هذه العلاقة انبهار بأهلها «عائلتها كانت تنم عن الذوق والأصل الرفيع والأناقة ومقدار من الرقي الأدبي تخضعني أحياناً لحالة أقرب ما تكون إلى الإذعان».(٢٠٦) ومن مزايا هذه العلاقة شوق لا يشبع بسبب تعقد مشاعرها حيال أخيها «هكذا يبدو لي الأمر الآن».(٢٠٧) يبدو أن طلبه للحب منها قد عاش حالة من الافتقار، كما لو أن الشوق هنا قوة قد أخطأت هدفها «يصعب علي الآن أن أعيد تركيب مشاعر الهجران المرعبة التي كانت تجرني إليها وهي على أهبة تركي، وهو ما كانت تفعله غالباً.» «إني أحبك. لكني لست مغرمة بك»، تقول وهي تبلغني بأنها قررت الانفصال النهائي بيننا.»(٢٠٨) «وبعد أسبوعين، كتبت تسأل ما إذا كانت تستطيع أن تزورني في القاهرة. عشت في نعيم إلى أن عاودتها غريزة ديانا فأعلنت بعد أسبوع

(٢٠١) المصدر السابق، ص. ٣٤٤.
(٢٠٢) المصدر السابق، ص. ٣٤٤.
(٢٠٣) المصدر السابق، ص. ٣٤٥.
(٢٠٤) المصدر السابق، ص. ٣٤٥.
(٢٠٥) المصدر السابق، ص. ٣٤٥.
(٢٠٦) المصدر السابق، ص. ٣٤٥.
(٢٠٧) المصدر السابق، ص. ٣٤٥.
(٢٠٨) المصدر السابق، ص. ٣٤٥.

«عليّ أن أغادر»، ولم أستطع ثنيها. وبعد أسابيع كنا معاً مجدداً، ثم انفصلنا، وهكذا دواليك.»(٢٠٩)

كما لو أن علاقته بالقانون الذي يمنع المتعة معقدة، ومع أنه غامر خارج إكراهات النظم الاجتماعية التي تربى عليها، ولكن خرقه لها لم يتجاوز كثيراً النظام الأبوي. فهذا الحب المُطوق برغبة الحبيبة وأهوائها المتطرفة يتضمن بعداً خرقياً أساسياً ناتجاً عن تقديس المرأة وتنظيمه لبعدها ومنعها. وكأنه لم يغادر كليةً طوق النظام المحافظ الذي تربى عليه، إذ احتفظ بموقع المرأة المثال «الآلهة» في علاقته بها. لذا انساق وراء أهواء هذه العلاقة، ولم يتحرر منها إلا بعد وقت طويل. فكونه عاش في أميركا قد حرره من سطوة أمه، لكنه أوقعه بسطوة امرأة أخرى، لها صفات شبيهة إلى حد ما بصفات أمه التي تعطي وتتمنع، تهب وتحرم. واليوم في سيرته فإنه قدم قراءة متعارضة مع ما عاشه من انقياد حين أزال صفة المثالية عن أمه، وحين شرح أسباب انقياده إلى هذه المرأة الاميركية «وعندما بدا زواجي ينهار، عدت إليها. لكن مشاعري تجاهها كانت قد تبدلت. فجأة انتهت تلك السنوات التي كنت انتظر خلالها آلهتي ديانا، تلك التي شكلت جزءاً حميماً من حياتي، وكانت ضرورية جداً لذاتي المحتجبة الجائعة والمكبوتة (...) فهي تخاطب مباشرة ذلك الجزء السري من كياني الذي احتفظت به لنفسي طويلاً، لا «إد» ولا «إدوارد»، الشخصيتين المعينتين لي تعييناً، وإنما تلك الذات الأخرى التي أدركت دائماً أنها موجودة فيّ وإن كنت لا أستطيع إليها وصولاً بسهولة أو مباشرة. فعندما أكون معها، أجدها تطاول ذلك الجزء مني. ومع ذلك، فجأة أدركت نفسي المطمئنة- وقد استكانت بعد بضعة أسابيع من الراحة في لبنان - أننا لا نستطيع الاستمرار معاً.»(٢١٠)

هكذا عاد إليه «الاطمئنان» و«الاستكانة» بعد انقطاع الشوق، وأين؟ في لبنان. ترى هل للمكان من صلة في بناء هذه العلاقة وانفراطها؟ كما لو أن أميركا جسدت له آنذاك، مكان التحدي والتحرر من القوالب التي نشأ عليها، ولكنها مثلت له أيضاً، مكان الغربة والمنفى. ألهذا لم يسمِّ حبيبته الأميركية، بينما سمى حبيبته اللبنانية، مع أني كقارئة عربية كنت أتوقع منه العكس؟

خلاصة

كأن الكاتب أراد حصر عشقه ببعده المأساوي المبني على إشكالات يصعب حلها، حيث لم يتطابق ادوارد مع ذاته الأولية، بل هو متنازع بين أصوات عديدة: صوت الأم

(٢٠٩) المصدر السابق، ص. ٣٤٦.
(٢١٠) المصدر السابق ص. ٣٤٦.

وصوت الأب، صوت ذاتيته، صوت حبيبتيه، صوت بيئته العربية والأخرى الأميركية، الخ.

هكذا عاش علاقتيه الغراميتين، في مناخ صراعي، من أجل حريته ومن أجل فرض مواجهته المتمردة على قيم القمع والتسلط. وهو في الحالتين عبّر عن حاجته اللامحدودة إلى الحب، بحثاً عن الطمأنينة المفقودة التي اتخذت لها من التعلق بالأم نموذجاً أولياً، ما لبث أن كرره مع حبيبته الأميركية، إلى أن تحرر منه. لعل خوفه من الهجر يعود إلى نفيه بعيداً عن وطنه، وبعيداً عن أمه، وإلى طباع الأم التي تمنح وتحبس كما رآها الابن. لعل الأم هي أيقونة النساء في حياة ادوارد سعيد. لذلك كان التجاذب قوياً بين النظام الأمومي والأبوي، فانعكس هذا التجاذب على صورة صعوبات واجهها ادوارد لتأكيد نفسه خارج الترسيمات الذكورية الجاهزة، وعلى صعوبات أخرى في علاقاته الأخوية والغرامية. ففي محاولته تحليل هذه الصعوبات وآلياتها، واشج عيشه مع أفكاره (أي أن أفكاره نابعة من تجاربه) وتوافق تحليله لسلطة النظام البطركي وتمثلاته الاجتماعية والثقافية للذكورة والأنوثة، مع تحليل النسويات له، حيث استفاض في إبانة جسد مهدد، وذات يتلاعب بها نظام قيمي محافظ يقمع تجلياتها الجنسية. شكلت الأم محوراً رئيسياً، وما توصيفه لعلاقاته بأخواته وبمحبوباته إلا تشكيلات يضعها في مقابلة علاقته بأمه، مبرزاً في تقابلها نفورها، ضمن توجه فكري شمولي يركز على السياق في فهم هذه العلاقات. فاستخدم خطاباً محاجاً عاطفياً متطابقاً وخطاب محاج آخر تحليلي سوسيولوجي، انتروبولوجي، نفسي، سياسي؛ ذلك لإفشاء الصامت في تاريخه الخاص/العام، ولإظهار أصواته الناشزة. آخذاً في الحسبان اكتمال الشيء وضده خارج النظام المعتاد. هكذا التقى خطابه السير ذاتي مع خطاب النساء السير ذاتي -في الغرب- حول إظهاره تمريناً لإلغاء المثالية، وبعده عن الخطاب السير ذاتي التقليدي للرجال الذي يهتم بإبراز مسار مرسوم بشكل واضح. بينما من منظوره ومنظور النساء، فإن الخاصية المسيطرة هي التقطع في رسم الهوية التي انبنت خارج النماذج الثقافية التقليدية. لذلك لم يكن خطابه عن حياته خطياً بل منكسراً ومنعطفاً، إذ لا يتزاوج والفصول والأعمار، بل يركز مساره على الكسور والانحرافات التي دمغته بطابعها والتي سمحت له في الوقت نفسه، الخروج عليها.[٢١١] فالخطاب السير ذاتي هو كتابة تستكمل إدراكها الذات الكاتبة. فهل خبرته المتأخرة بكتابات

---

(٢١١) حول هذه النقطة، نجد تحليلاً مقارناً تفصيلياً بين سير الرجال والنساء في: La faute à Rousseau, Masculin/Féminin, APA2000-N.24. على أني وجدت في هذه المقارنة تقارباً بين خطاب ادوارد سعيد وخطاب النساء وبعد خطابه عن الخطاب التقليدي للرجال، وفقاً للتحليل الوارد في هذا الملف. فهو خطاب انشقاقي يفسح مجالاً لنقد التنميطات والترسيمات الجاهزة الثقافية والاجتماعية.

النساء أثرت في كتابته لسيرته، أم أن التقدم في العمر وتهديد الموت قد حررا مكوّنه الأنثوي، فصار أكثر قرباً من خطاب النساء؟

كلمة أخيرة

إذا كانت الملحمة نتاج ثقافة مستقرة وقيم ثابتة وهوية راسخة، كما قال لوكاش في عرض نظريته عن الرواية، وإذا كانت الرواية نتاج مجتمع متغير، قيمه متقلبة وهويته مقلقلة، فما تمثل السيرة الذاتية لكاتب منفي؟

إنها تجسد، وفقاً لدراستنا العقبة aporie،(٢١٢) أي الكتابة التي لا تقوم على التمثيل والتخييل لبناء عالم جديد يشبه إلى حد ما عالم الكاتب المفقود الذي خلّفه وراءه-كما يحدث في الرواية- فيشكل له هذا العالم المتمثل والمتخيل بديلاً له. بل هي الكتابة التي تقوم على مواجهة وضعية مستحيلة، إنها وضعية المنفي الشاذ والمختلف، على ما يحب ادوارد سعيد نعته. فتجربة العيش في عالمين وثقافتين ولغتين، كما حدث له، ويحدث لكل منفي، جعلت من الواقعيّ انفلات للمعنى يقضي على الذات أن تخطئه، إنه الحاضر الذي لا يمكن الإمساك به إلا بعد أن ندير وجهنا إليه. ففي استحالة الإمساك بالحاضر واستحالة بناء الماضي كبديل، تصير السيرة هي كتابة العقبة. يقول ادوارد سعيد في «تأملات في المنفى» فالنفي يدل ضمناً على وجود حب المرء لوطنه الأصلي وارتباطه به؛ وما يصح على كل منفي ليس فقدان الوطن وحبه، بل تأصّل هذا الفقدان في وجودهما كليهما بالذات. فلننظر إلى التجارب كما لو أنها على وشك الزوال. فما الذي يرسيها في الواقع؟ وما الذي ستحفظه وتحميه منها؟ ما الذي ستتركه؟ وحدهم أولئك الذين حققوا الاستقلال والانفصال، أولئك الذين يرون أن وطنهم «عزيز وأثير» إلا أن ظروفهم تحول تماماً دون استعادة تلك العذوبة والإثرة، وحدهم من تمكن لهم الإجابة عن هذه الأسئلة.(فمثل هؤلاء الأشخاص يجدون أيضاً أن من المستحيل نيل الرضا من تلك البدائل التي تزيّنها الأوهام أو العقائد الجامدة)».(٢١٣) فما الذي أجابت عليه سيرته من هذه الأسئلة؟ إن سيرته التي انطلقت من استحالة بناء عالم بديل عن المفقود واستحالة التماهي الكامل بالعالم الثاني، تواجه هذه الاستحالة برؤية العالم على أنه «أرض غريبة» فرؤية «العالم أجمع أرضاً غريبة»(٢١٤) تمكّن من تكوين رؤية

(٢١٢) هذا مفهوم لدريدا، وقد قرأنا تحليلاً معمقاً له في: العشق والكتابة، رجاء بن سلامة، منشورات الجمل، كولونيا-ألمانيا ٢٠٠٣، ص. ٤٤٠. وتدل العقبة على تناقض يصعب أو يستحيل حله، فيقف الفكر عنده ويواجهه للنظر في إمكانية تجاوزه مع مواصلة الوعي به وعيش محنته.

(٢١٣) ادوارد سعيد، تأملات حول المنفى، المصدر المذكور، ص. ١٣٢.

(٢١٤) إنها مقولة لفيكتور هيغو.

أصيلة. وفي حين لا يعرف معظم الناس سوى ثقافة واحدة، وخلفية واحدة، ووطن واحد؛ فإن المنفيين يعرفون اثنين على الأقلّ، وتعددية الرؤية هذه تولّد وعياً بالأبعاد المتزامنة، وعياً هو وعيٌ طباقي، كما يقال في لغة الموسيقى.»(٢١٥) من هنا كان استخدامه لهذا المصطلح ضرورة وجودية لتجسيد المستحيل في انفلاته كتابة ومنظوراً. فتجربته التي نشأت على التقابل بين الأضداد والمفارقات لم تستسلم كتابة إلى بساطة الاعتراف بها، بل انطلقت منها لبناء منظور جديد لها يقوم على الطباقي وليس على الاستحضار والاستبدال. لذلك يمكننا القول إن سيرته تفيد بضرورة تغيير وجهة النظر وتحويلها إلى ما هو قابل إلى التجاوز.(٢١٦) إلا أن الكتابة عن اللذة الطباقية،(٢١٧) إن جاز التعبير، لا تستدعي المتعة المتواصلة، فهي محفوفة بمخاطر الزعزعة، والتنافر، والاهتزاز ما دامت لا تقوم على محور مركزي.(٢١٨) أليست هذه هي العناصر التي مثلت الاستحالة والتحول، هي التي شكلت كتابته السير ذاتية؟ لكننا نشك في نجاح هذه العملية الفكرية، كما شكك الكاتب بدوره.(٢١٩) وإلا كيف نفسر توقف سيرته عند مذكراته حول طفولته ويفاعته أساساً، وعند علاقاته الأسرية علاقته بأمه خصوصاً؟ فهو حين استعادها فإنه استرجع جروحه وكسراته العائلية/الحميمية/ المكانية/ التاريخية، بشكل حاد وحيّ. كما لو أنها انفجرت في ذاكرته بعيد اقترابه من الموت، وانفجر معها ضرورة رويها وعيش محنتها ولذائذها. ومع إعلانه موقفاً معرفياً يقوم على الطباقي، غير أن مشاعره ثارت على تنظيره الفكري في مغامرة رغبوية، ربما تعلن عن نذر من نذور الأسلوب المتأخر الذي أشار إليه في تقديمه لسيرته،(٢٢٠) الذي استشفه في الكتابات المتأخرة لبعض الكُتّاب، والذي يكشف نقطة التحول في الكتابة. وبالتالي، فإن السؤال الذي يبقينا مشغولين به هو: لماذا لا نرى في هذه المذكرات ادوارد الأميركي، مع أنه أشار إليه. بل رأينا بشكل أعمق ادوارد الفلسطيني العربي؟ ترى هل ليترك باب اجتهاده في رؤية الهوية انطلاقاً من القراءة الطباقية على مصراعيه،

(٢١٥) ادوارد سعيد، تأملات في المنفى، المصدر السابق، ص١٣٣،.

(٢١٦) ونقصد بذلك تجاوز الأحكام المتزمتة وضيق أفق النظر الذي يتيح ملاحظة التعارضات في المفاهيم والأفكار المتنوعة وما تؤول إليه بعيداً عن المسلمات والبديهيات. ذلك من أجل تجاوز حواجز الفكر والتجربة.

(٢١٧) انظر ما قاله عن الطباقي في: ادوارد سعيد، فرويد وغير الأوروبيين، دار الآداب ٢٠٠٤، ص. ١٧.

(٢١٨) انظر خاتمة السيرة «خارج المكان»، المصدر المذكور، ص. ٣٥٩.

(٢١٩) المصدر السابق، ص. ٣٥٩.

(٢٢٠) يقول في تقديمه لسيرته: «فلا شك في أن كتاباتي السياسية عن الوضع الفلسطيني، ودراساتي عن العلاقة بين السياسة والجماليات، وخصوصاً الأوبرا والنثر المتخيل، وافتتاني بموضوع كتاب أكتبه عن الأسلوب المتأخر (بدءاً ببتهوفن وادورنو) قد غذّت هذه المذكرات بروافد خفية». المصدر المذكور، ص. ١٩.

باعثاً فينا عدم الاستكانة إلى تنظيره، بل مشيراً خلسة إلى زعزعته ونقصانه؟ ألا يشير ذلك ضمناً إلى أن السيرة الذاتية، كما كتب فيليب لوجون، تزعج وتهز وتقلب المناظير، على المستوى الفكري والعاطفي والجمالي؟[٢٢١] أم تراه أراد تطبيق مقولة كونراد التي استشهد بها «إن ما من قلب إلا وتعتمل فيه الرغبة في أن يدوّن مرّة وإلى الأبد رواية صادقة لما حدث»؟[٢٢٢]

(٢٢١) Philippe Lejeune, Pour l'autobiograhie, chroniques, Seuil 1998, p.11.

(٢٢٢) انظر: تأملات في المنفى ١، المصدر المذكور، ص. ٣٨٣.